قصة يوسف

تفسير، ورؤية قصصية حديثة



تأليف الدكتور

محمود رجاء حسن نوافلة

قصة يوسف

تفسير، ورؤية قصصية حديثة

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(2019 /6 /3069)

نوافلة، محمود رجاء
قصة يوسف تفسير ورؤية قصصية حديثة/ محمود رجاء نوافلة -
عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع 2019
(   ) ص.
ر. ا. : (2019 /6 /3069)
الواصفات: / يوسف عليه السلام/ / قصص القرآن/ / السرد القصصي/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

دار غيداء للنشر والتوزيع
تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
تلفاكس: 5353402 6 962+
خلوي: 95667143 7 962+
ص.ب: 520946 عمان 11152 الأردن
E-mail: darghidaa@gmail.com
www.darghaidaa.com
E-mail: info@darghaidaa.com

قصة يوسف

تفسير، ورؤية قصصية حديثة

تأليف الدكتور

محمود رجاء حسن نوافلة

أستاذ اللغة والنحو المشارك في جامعة الملك خالد-أبها

كلية العلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية وآدابها

الطبعة الأولى

2020م- 1441هـ



{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}

الفهرس

مقدمة.. 13

جو السورة.. 13

المناسبة 16

تمهيد 16

الفصل الأول

أحداث القصة "سرد القصة"

الفصل الثاني

مغامرات الأبطال وأبرز ملامح شخصياتهم في القصة

تمهيد 87

أولاً: الشخصيات القيادية 89

أ- شخصية يعقوب عليه السلام 89

ب- شخصية يوسف عليه السلام 91

ت- شخصية الملك 94

ث- شخصية امرأة العزيز 98

ج- شخصية يهوذا الأخ الأكبر ليوسف 101

ثانياً: الشخصيات المكملة 103

أ- صويحبات امرأة العزيز 103

ب- بنيامن 103

ت- المرأة المستفادة من لفظ " ورفع أبويه على العرش " 104

ث- إخوة يوسف خلا بنيامين 104

ج- أعوان الملك ومستشاروه 111

ثالثاً: الشخصيات الحيادية 112

أ- الطفل الذي أنطقه الـلـه ببراءة يوسف 112

ب- الساقي 115

ت- الخباز 116

رابعاً: شخصيات المراقبين 117

أ- حفدة يعقوب عليه السلام وذرياتهم 117

ب- كل من كانوا يجالسونه في المحنة 118

ت- كل من دخل معه على يوسف في مصر عند تكشف الحقائق 118

ث- عامة الناس من سكان مدينة العزيز 118

الفصل الثالث

المعاني العقلية في القصة و تأويلاتها بقرائن الحال والمقال

تمهيد 121

1- (**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**) [الآية: 1] 122

2- (قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا .....) [الآية: 5] 122

3- (وَكَـذَلِكَ يَجْتَبِيـكَ رَبُّـكَ وَيُعَلِّمُـكَ مِـن تَأْوِيـلِ الأَحَادِيـثِ وَيُـتِمُّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْـكَ وَعَـلَى آلِ يَعْقُوبَ ....) [الآية: 6] 122

4- (إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ....) [الآية: 8] 122

5- (قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ....) [الآية: 11] 123

6- (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي ....) [الآية: 13] 123

7- (فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ....) [الآية: 15 123

8-(وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ....) [الآية: 16] 123

9- (وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ....) [الآية:19] 124

10- (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ....) [الآية:20] 124

11- (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَـدًا ......)
[الآية:21]..124

12- (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) [الآية: 23] ..125

13-(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ ....) [الآية:24].......................................125

14- (وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ ......) [الآية: 25]...126

15- (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ......) [الآية: 30]....... 126

16- (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ....) [الآية: 31] 127

17- (قَـالَ رَبِّ السِّـجْنُ أَحَـبُّ إِلَيَّ مِـمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّـي كَيْـدَهُنَّ ....)
[الآية:33]..128

18- (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ ....) [الآية:35]...................................128

19- (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ ....) [الآية: 36] 129

20- (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّـنْهُمَا اذْكُـرْنِي عِنـدَ رَبِّـكَ فَأَنسَـاهُ الشَّـيْطَانُ ذِكْـرَ رَبِّـهِ ....)
[الآية: 42]...129

21- (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ ....) [الآية: 43] 129

22- (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ....) [يوسف: 46] 130

23- (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ ...) [الآية: 50]....... 130

24- (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ....) [الآية: 51] 130

25- (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ ....) [الآية:54]..131

26-(وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ ....) [الآية:58] 131

27- (وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ....) [الآية:59].....................131

28- (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا..........) [الآية:62]................131

29- (فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ....) الآية:63] 131

30- (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللـهِ ....) [الآية:66] 131

31- (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ......) [الآية:67] 132

32- (وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللـهِ مِن شَيْءٍ)

[الآية:68] 132

(وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ ....) [الآية: 69] 132

33- (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ....) [الآية:70] 132

34- (قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ....) [الآية: 71] 133

35- (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ....) [الآية: 83]...............................134

36- (يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ ....) [الآية:87]......................134

37- (فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ....) [الآية: 88] 135

38- (فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ....) [الآية: 99] 135

39- (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) [الآية: 101] 136

40- (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ....) [الآية: 111]....................... 137

الفصل الرابع

رؤية فنية في نثر القصة

تمهيد 141

أولاً: الوحدة العضوية في قصة يوسف 142

ثانيا: الوحدة العضوية في الأعمال الأدبية 151

ثالثا: غرائب القصة 152

رابعا: أسرار القصة.. 156

خامسا: موازنة نقدية بين قصة يوسف والقصص التقليدية 158

الخاتمة والدروس المستفادة من قصة يوسف.. 161

المصادر والمراجع... 165

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خير الأنام والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

القرآن الكريم كله معجزة، (**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** {88/17})ونحن سنتناول جانباً من جوانب الإعجاز فيه ممثلاً في قصة يوسف من منظار تحليل القصة الحديث، مع المحافظة على الأصالة، والذي يدعونا إلى النظرة الحديثة في هذه القصة، أن الدراسات القصصية في الأدب العربي شحيحة بالمقارنة مع نظيرتها في الأدب الغربي، الذي غدت فيه القصة فنًا مقننًا فالعرب لم يعرفوا العلوم المقننة إلا بعد ظهور الإسلام بزمن، فكانت تعاليم الدين هي الميزان في قبول هذا الفن أو رفضه، فحتى حين نزول سورة يوسف بقصتها الشهيرة، كان انبهار العرب بالقرآن الكريم قد شغلهم عما سواه فكل عمل أدبي عندهم ما سوى القرآن لا قيمة له.

وكانت ثقافة العرب في فن القصة لا تسمح بالغوص في تحليل القصص، بما لا يمنع من أن المفسرين كانوا قد برعوا في علوم اللغة من نحو وصرف، وصوت ودلالة، ودراية كبيرة في التاريخ، والمنطق، ورأينا صورة ذلك في تفاسيرهم ولكن لم نجد تركيزاً على أسلوب التحليل القصصي للذي ذكرنا، لذا ارتأينا أن نتناول تفسير هذه القصة من منظار حديث محافظ في تحليل القصة والله الموفق.

2. جو السورة

هي إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، لكنها أفردت الحديث عن نبي الله "يوسف بن يعقوب" عليهما السلام، وما لاقاه من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد التي تكشف عنها.

وغدا لفظ: سورة يوسف، وقصة يوسف شيئًا واحدًا، لأن السورة تروي أحداث قصة متكاملة، إلا ما كان من آيات في مطلعها تخاطب الرسل صلى الله عليه وسلم، لافتة الانتباه إلى القصة، وآيات في آخرها ذكرت له مغزاها.

تدور قصة يوسف، أو سورة يوسف إن أردت أن تسمي في فضائين: خارجي وداخلي:

1. أما الفضاء الداخلي، فهو المتعلق بأحداث القصة، وهي مجمل الأفعال التي قام بها شخوص القصة، وأبرزهم يوسف عليه السلام والمعبَّر عنها في تحليل القصة الحديث بلفظ "المغامرات" وهي جملة الأعمال التي تجري بواسطة شخصية أو أكثر في إطار زمني ما"[1].
2. وأما الفضاء الخارجي، فهو مجمل الظروف التي نزلت بها أحداث السورة، وأبرزها:

أ. وفاة زوج النبي خديجة رضي الله عنها

ب. وفاة عمه أبي طالب، سنده في الدعوة آنذاك

ج. اشتداد أذى قريش

د. خذلان أهل الطائف

وقد عُبِّر عن الفضاء الخارجي بـ "السيمياء الواصفة"[2]، عند السيميائيين في تحليل النص وفي تحليل القصة الحديث عبر عن ذلك بأكثر من تعبير مثل: "الزمن نقطة الانطلاق ونقطة المآل"[3]، أو "زمن متصل بالقصة"[4]، أو الامتثال للزمن في

(1) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب، ط2، تونس، 2015، 45/1، الراوي، دكتور مصطفى ساجد، بناء الشخصية في الرواية، ط1، 1424هـ- 2003، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، الجمهورية اليمنة 183.

(2) يوسف، دكتور أحمد، السيميائيات الواصفة، مكتبة كنانة، إربد، الأردن ط1، 2003، 19.

(3) طرائق تحليل القصة، 34.

(4) السابق، 53

الرواية"[1]، وفي هذه القصة أيضًا تشكل مدخل للبنيويين، لأن أحداثها مترابطة ومتكاملة في نسيج محكم، ومتقن، فيه مراعاة التاريخ والمكان والزمان، وتوزيع الأدوار، والانسجام في المواقف، ومراعاة علاقات عناصر القصة الثمانية بعضها مع بعض وهي:

1. فاعل معين أو أكثر (المسند إليه)
2. مسند يكون قولاً، أو فعلاً، أو حالاً، قابل للتعدد، ذو تحول أو أكثر بين البداية والنهاية، وتكون حركته موافقة لنظام ما عبر المدى الزمني الذي تمتد عليه أعمال المغامرة (مجموعة الأفعال)
3. حركة تطرأ على علاقة الإسناد عبر الزمن
4. الزمن باعتباره نقطة الانطلاق والمآل
5. حبكة تكسب المسانيد صفة الزمنية
6. الترابط بين الحدث والحدث، والمقطع والمقطع، والإحالات المقامية والحالية
7. وجود معنى قابل للفهم لترابط العناصر
8. وجود نهاية مهما تكن

وتراعي خصوصية في هذه العناصر الثمانية، أنها تحكي أحداثاً مطبوعة، وحقيقية لأنها أحكمت بنص قرآني.

وفي القصة مداخل سيميائية، لأنها مرتبطة بظروف وأزمنة محيطة بالمغامرات (مجموعة الأفعال)، من مثل مجموع الظروف التي كان يعيشها محمد صلى الله عليه وسلم، في عام الحزن، فجاءت تسلي وتحث، وتصبر، وتبشِّر باستخدام أساليب وألفاظ وإيحاءات دالة على ذلك، وفي القصة انزياح بائن، وهو مدخل للأسلوبين للآتي:

الأصل في القرآن المكي أن يكن قوياً في ألفاظه، شديداً في أسلوبه، عنيفًا في معانيه، مؤثراً في السمع، كثير التوبيخ والسخرية والتهكم والتهديد، ولما جاءت القصة بأسلوب

(1) إبراهيم، دكتور عبد الله، البناء الفني لرواية الحرب في العراق، دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1988، 27.

ممتـع ولطيـف، وألفـاظ سلسـة تسري في الـنفس سريـان الـدم في الشرايـين، وتسـترف القلوب، وتلذ بها الأسماع، وكل ذلك تقديراً للجو النفسي الذي كان يعيشـه صـلى اللـه عليه وسلم، كان ذلك انزياحاً وهو خروج المعاني عن الأصل الذي تسير فيه[1]، وخرجـت بذلك الاستعارة، والكناية، والمجاز اللغوي مـثلاً لأنهـا تقـع في اللفـظ، والانزيـاح يقـع في المعنى، وشكل هذا الانزياح انزياح السورة من مسارها المـكي إلى مسـارها الـذي راعـت فيه ظروف المتلقي وهو محمد صلى اللـه عليه وسـلم وهـو المعـادل لمصـطلح "الـزمن الخارجي للقصة"[2] عند المحدثين.

هذا مجمل الظروف التي نزلت بها سورة يوسف التي طالعتنا بأعجوبة قصة يوسف.

3. المناسبة

روي أن اليهود سألوا رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم عن قصة يوسف وما حصل مع إخوانه أولاد يعقوب فنزلت السورة[3].

ويطلق الروائيون عـلى الفـترة الزمنيـة التـي تكتنـف وضـع الأثـر أو إنشـائه بــ "الـزمن الحاف"[4]، وهو المقابل لمصطلح "مناسبة النزول" ويقصد بـه الظـروف المهيئـة للقصـة، وأحيانـاً يطلق مصطلح الزمن الأول[5] على هذه الظروف.

4- تمهيد

في القصة مجموعة أحداث، عبر عنها الروائيـون بــ "مسـانيد" ومجموعـة أشـخاص "مسـند

---

(1) الراوي، دكتور مصطفى ساجد، بناء الشخصية في الرواية، 26 مرجع سابق.
(2) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، 46/1
(3) القرطبي، تفسير الجامع لأحكام القرآن 140/9.
(4) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، 53/1.
(5) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، 53/1.

إليهم" وعرف الروائيون الحدث بأنه اقتران فعل بزمن[1] والزمن عنصر أصيل في بناء الرواية، وأقدم العناصر حضوراً، وأكثرها اقتراناً بالشخصية، والأحداث الروائية في قصة يوسف متكاملة، وحُملت وظائف متعددة أحياناً كما في يوسف عليه السلام، وإخوته، وقليلة أحياناً، كما في دور الطفل في حجر امرأة العزيز وهناك من الروائيين من يسم الشخص بحسب ما يسند إليه من أفعال في الرواية، فقسموا الشخصيات تقسيمات مختلفة "فهي بحسب عدد جوانبها: أحادية الجانب، أي ليس لها في القصة إلا جانب واحد، وشخصيات متعددة الجوانب، وهي التي لها في القصة أكثر من جانب، ومن حيث ثرائها تقع في قسمين: مسطحة، وكثيفة، وبحسب نوعية مسارها هي ساكنة وحركية، وما إلى ذلك من تقسيمات بحسب ما يسند إليها من قول، أو سلوك، أو حال"[2]، وكل ذلك نجده في القصة.

وثمة فرق كبير واختلاف واضح في تقسيم المسانيد، والمسند إليهم الحدث ما بين القصص القرآنية، والقصص التقليدية الأخرى، فالقصص التقليدية غالباً ما تكون محكومة بنتائج وأحداث تتراوح بين الحقيقة والخيال[3]وأما في القصص القرآنية، كما الحال في قصة يوسف، فإن المسانيد والمسند إليهم تجري بهم الأقدار، وإرادة المولى العزيز[4] وهو ما نشاهده في هذا الفصل.

---

(1) زغلول، دكتور محمد سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة، أصولها، اتجاهاتها، أعلامها، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1987، 88.

(2) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، 1/ 148– 150 بتصرف.

(3) عثمان، دكتور بدري بناء الشخصية الرئيسة في رواية نجيب محفوظ، دار الحداثة للطبع والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1985، 134.

(4) انظر في القصة: موافقة يعقوب عليه السلام على رحلة يوسف، ومراودة امرأة العزيز ليوسف وكتمها غيظها ولم تؤذه في بيتها بعد رفضه، صبر العزيز على امرأته، فلو قدر الله أن تجري هذه الأمور بحسب مقتضى الحال، لانتهت القصة عند أي موقف تجري فيه الأمور على نصابها.

الفصل الأول

أحداث القصة "سردها"

الفصل الأول

أحداث القصة "سردها"

الآيات من 1 – 3

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {1/12} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {2/12} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)

حروف مطالع السور من مثل: **"الم، الر، ق، ص، كهيعص....."** أبرز ما قال فيها المفسرون: إنها إشارات إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف ومثلها يتألف القرآن الكريم[1] والأمر لا يخلو من لفت انتباه وتشويق إلى القصة، وإن لفظ "أحسن القصص، تلازمه الإبانة والكشف، وهما من خصوصيات اللغة العربية، أو أن تقول: تقديم تمهيدي مناسب، يليق بأحداث القصة، وهذا ما يعرف حدثياً بـ "القص السابق"[2] وهو أن تأخذ جانباً أو أكثر من جوانب القصة تبرزه في مطلعها ثم تفرده بالتفصيل أو التحليل في مكانه المخصص له.

لفظ "نقصُّ"

ومادته الثلاثية "قَصَصَ"، بمعنى تتبع الأثر، سواءٌ أكان هذا التتبع لشخص، كما في "**(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)**"[3] أم تتبع أحداث قصة كما في قصة يوسف.

(1) انظر: أقوال المفسرين في مطلع السور.

(2) طرائق تحليل القصة، قسومة، 1/ 47.

(3) سورة القصص، آية 11.

فالقصة لفظ جامع تقع تحته أجناس وضروب كثيرة، وهي موغلة في القدم، ومعبرة عن ضروب شتى من حياة الشعوب، وليس بالضرورة أن تكون القصة أدبية، وتقدم القصة في طرائق مختلفة، كالمسرح والسينما، وخيال الطفل، وتعالج هذه الأشكال بتقنيات ذات أصول ومقاييس قضايا مختلفة: اجتماعية، دينية، ثقافية وغير ذلك وقصة يوسف في هذا الجانب، شأنها شأن القصص التي تعالج قضايا ما، بفارق الجوانب الإعجازية التي حوتها، بلفظ "أحسن القصص".

إذن يبدو لفظ "نقصُّ" فيه نقل الأحداث "السرد" المكونة من مجموع المسانيد، والمسند إليها، وارتباطاتها بالزمن، كي تتحقق لها صفة البناء[1]، في ظل تحديد مواقع الشخصيات الروائية وتحركاتها واتجاهاتها في أحداثها الزمانية.

ولكن لفظ "قَصَص" جمع قصة من الراجح أن المراد به عموم لا خصوص، لأن الخصوص في لفظ "قصة" يدل عليها نوعاً من الأشكال الأدبية: مسرحية، رواية، حكاية، قصة، أقصوصة، فهذه الأشكال تلتقي جميعاً في معنى "قصَّ" المعادل لِ "سَرَدَ"، وتختلف في خصوصيات ينماز بها كل شكل من الأشكال الأخرى، لأن إرادة الخصوص من لفظ "قصة" يتطلب أن تكون عند المخاطب دراية ثقافية عن مكنون هذه الأجناس الأدبية فالمرجح أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المخاطب عنده دراية عن لفظ "قصة" على العموم، لأنه كان يستمع من اليهود إلى أخبار بني إسرائيل بطريقة "السرد" وهو المصطلح الذي تتلاقى فيه جميع الأشكال الأدبية، وليست عنده دراية عن الخصوص في لفظ "قصة"، لأن العرب لم يعرفوا فن القصة بالمعنى العلمي قبل الإسلام، ولم يتطور فن القصة عند العرب إلا من خلال الامتزاج بالثقافات الأخرى، ولا سيما الآداب الغربية[2]، وقيل: "إن

---

(1) موير، آدوين، بناء الرواية، ترجمة إبراهيم الصيوفي، مراجعة د. عبدالقادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965، ص33.

(2) طرائق تحليل القصة، قسومة 8/1 مرجع سابق.

العرب تركوا القصة في مصنفاتهم لانبهارهم في الشعر ونظمه، حتى غدا الشعر طبعاً ركب فيهم"[1].

فعليه يكون لفظ "قصة" يفيد مجموع ما تفيده الرواية، والمسرحية، والأقصوصة، لتلاقي هذه الأجناس في " قَصَّ " أو سرد، وأما لفظ "أحسن القصص" وفيه استخدام صيغة التفضيل " أَفْعَلَ "، فأي القصص تفضلها هذه القصة كي يستوي ورود صيغة التفضيل؟

في هذه الصيغة ما اصطلح على تسميته في دراسة تحليل النص بالإحالة المرجعية وهي نوعان: إحالة خارجية، وإحالة داخلية[2] وكلاهما من مفرزات علم الدلالة الحديث[3]، ومن مهماته البحث في المعاني ومشكلاتها وتقع تحت ذلك الإحالات، والسيميائات، والمعنى والسياق.

فأما الإحالة الخارجية في لفظ "أحسن القصص" فتعود إلى جهتين هما:

1. اليهود ومن اتصلوا بهم من أعداء الدعوة، فقد كانوا يقصون القصص المختلفة والملفقة، ويذكر أن اليهود أشهر الخلق في التزوير، واختلاق الحكايات وتسخيرها في خدمة قضاياهم من عهد موسى عليه السلام إلى اليوم، وكانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يقصون ويستمع إليهم، وهو لم ينه عن الاستماع إلى أخبارهم، فالشاهد أنه لم يكن خالي الذهن من مفهوم القصة.

---

(1) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ط بيروت، مؤسسة عز الدين (د.ت) 20 / 51.

(2) انظر: عمر، دكتور أحمد مختار، علم الدلالة، ط5، القاهرة 1998، ص63، وبشر، دكتور كمال، دراسات في علم اللغة، ط6، دار المعارف بمصر، 1986م، ص14.

(3) تناول العرب القدماء الدلالة مفهوماً مستقلاً عن المعنى، وذكرها ابن قتيبة، والقرطاجني والجاحظ وابن جني، والجرجاني، والآمدي، وذكرها من المحدثين أحمد مختار، وكمال بشر، وإبراهيم السامرائي، وعدنان ذريل، وبسام قطوس، وأحمد يوسف، ومن الغرب جوستاف، وميشال بريل، وهوكيت، وتشومسكي، وجون لاينز ومن اليونان، أرسطو وأفلاطون، ولكن لم يرتق بالدلالة من منحى لغوي إلى علم إلا في القرن التاسع عشر نتيجة لتلاقح الثقافة العربية مع الغربية.

2. كون العرب قد عرفوا ضروباً من القصة مختلفة من الأمم التي اتصلوا بها، فمنها ما صنع على ألسنة الطير والبهائم، ومنها ما تخيل عن الجن والشياطين والمردة، وقصص العشاق، وطرائق الحمقى والمجانين، فصحيح أن فن القصة عند العرب مستحدث، ولكن العربي وقت نزول السورة، لم يكن خالي الذهن تماماً من مفهوم القصة، وصياغتها، فمن هنا جاء لفظ "أحسن القصص" يحمل إشارة دلالية، إلى تفضيل هذه القصة على هذه الأنواع من القصص التي كانت تتراوح بين المبالغ فيها، والمختلقة، ويذكر أن المفسرين كانوا أكثر ما يشيرون في إحالاتهم الخارجية إلى المناسبة، أو إلى شخصيات ذات مرجعيات مختلفة، من غير استخدام لفظ "إحالة" لأن هذا اللفظ من مفرزات علم الدلالة بمفهومه الحديث، كما ذكرنا.

وأما الإحالة الداخلية في لفظ "أحسن القصص" فهي تعود إلى أبرز أحداث القصة، بحسب المفهوم من تفسير السلف، أما المحدثون فقد رأوا أن الأحداث تتم بحسب طبيعة "السرد" وهي من مفرزات رؤية الشخوص، والناثر، والمتلقي[1] وهم بذلك يقصدون القصص التقليدية ومنهم من اعتمد الشخوص أساساً في تقسيم الإحالة إلى داخلية أو خارجية[2]، ومن المهم أن نشير إلى أن من الشخوص من لم يسند إليه قول، أو عمل في القصة، يهتدى إليهم بقرائن الحال، وأن جميع مغامرات الشخوص في القصص القرآنية "المسانيد والمسند إليهم" جرى بهم حكم الله وإرادته.

وفي ما يلي تأويل لفظ "أحسن القصص بحسب تفسير السلف"[3]

---

(1) مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، ع3، 1987، ص12.

(2) النازي، محمد عز الدين، السرد في روايات محمد زفرات، دار الشؤون العامة، (آفاق عربية) بغداد، دار النشر المغربية، بلا تاريخ، ص23، وقاسم، دكتورة سيزا أحمد، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، 1985، ص180، وفضل، دكتور صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، مطبعة الأمانة، مصر، 1978، ص138.

(3) انظر: الطبري، أبا جعفر، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت- لبنان، طبعة بلا تاريخ، 2/ 150، والألوسي البغدادي، شهاب الدين السيد محمود، تفسير القرآن العظيم

1. لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها.
2. لما فيها من حسن المحاورة، وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على إخوته ثم صفح عنهم.
3. لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن
4. فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما
5. أحسن بمعنى أعجب
6. من ذكر فيها كان مآله السعادة

ويبدو التهيب من النص القرآني واضحاً عند السلف لأن إحالتهم تعود إلى نص مكتوب، أكثر منها إلى مدركات عقلية.

فقوله تعالى: (**بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**) اي نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة بأصدق كلام، وأحسن بيان بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز، فيه عنصر تشويق وبيان أحداث قصة فريدة لأنه قبل هذه

والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، طبعة بلا تاريخ، والبيضاوي، إمام المحققين وقدوة المدققين، القاضي ناصر الدين أبا السعيد، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، صححه محمد سالم محيسن شعبان، ومحمود إسماعيل، مكتبة الجمهورية العربية، شارع الصنادعية- مصر، غير معروفة سنة النشر والشوكاني، محمد بن علي بن محمد، تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير– دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان سنة النشر غير معروفة، والقرطبي، أبا عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، تفسير الجامع لأحكام القرآن.

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر– القاهرة 1387هـ 1967م وأبا السعود، قاضي القضاة محمد العمادي الحنفي، تفسير أبي السعود تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة– الرياض، غير معروفة سنة النشر، وجل المفسرين على هذا الرأي.

العبارة من الآية، كانت المفاضلة السابقة قائمة على القصص التي سمعها محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود ومن والاهم، والآية تشمل المفاضلة كذلك على القصص القرآنية الأخرى التي جاء الوحي بقرآنها، بهذا اكتملت عناصر أسلوب التفضيل في الآية وهي: المفضل الواقع في لفظ "القصص" وصيغة "أَفْعَلَ" في لفظ "أَحْسَنَ" والمفضل عليه وهو المحال إليه من خارج النص، والمحال إليه من داخل النص وهي عموم القصص القرآنية الأخرى، وبعد أن وصل حال المتلقي إلى أعلى درجات الترقب والتشويق إلى الحديث نتيجة لحالة الانزياح الفكري لديه تبدأ القصة بعرض واحد من أبرز أحداثها والمعبر عن مثله عند المحدثين بإظهار جانب من الإبداع قبل العرض[1] تبدأ وقائع القصة.

ب- الآيات من 4- 6:

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ {4/12} قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {5/12} وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

صفوة أقوال المفسرين: أن الكواكب الأحد عشر هم إخوته، والشمس والقمر أبواه، وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه، وإخوته في مصر أربعون سنة[2].

والأصل في ضمير الكواكب أن يكون لغير العاقل "رأيتها"، والأصل في "ساجدين" أن يقال، "ساجدة" وسُوِّغ ذلك لأنه وصف الكواكب بفعل من يعقل.

(1) انظر: ديستوفيسكي، قضايا الفن الإبداعي، باحثين، ترجمة، دكتور جميل نصيف التكريتي، مراجعة، د. حياة شرارة، ط1، بغداد، 1986، ص125، وغائب، طعمة فرحان، النخلة والجيران، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ب- ت- ص 232.

(2) تفسير الصاوي، 142/8.

قال ابن عباس "كانت الرؤيا فيهم وحيًا[1]"، وأدرك يعقوب عليه السلام تفسير الرؤيا وطلب من يوسف ألا يخبر إخوته مخافة الغيرة، فيدبرون له مكيدة وهو ما تم بالفعل.

ويمكننا في هذه الحال أن نطلق على هذا الحدس أو التوقع لفظ "إحساس الشخصية بالحدث، لأنه صار واقعاً ويعتمد صدق الإحساس على ماضي الشخصية ووضعها الاجتماعي، وعوامل التكوين[2] هذا ونحن مع شخصية عادية، فكيف ونحن مع نبي؟ فأقرب الأوصاف الحديثة إلى شخصية يعقوب ما يقال من مثل: وعي الشخصية[3]، حيويتها[4]، إيمانها بالقدر[5]. وهذه الأوصاف التي يتمتع بها يعقوب عليه السلام، لم يقتصر تنبؤها على شدة غيرة إخوة يوسف منه إن أبدى الحلم، بل أدرك أن سيكون يوسف نبياً، كما كان أبواه إبراهيم وإسحاق، ذكر ذلك أبو حيان[6].

فائدة: في لفظ "أبويك" طرافة وتفريق بين الوالد والأب، فالوالد هو الأب المباشر للابن، وأما الأب فهو لفظ يطلق على تسلسل النسب بعد الأب المباشر، وقد يطلق الأب على الوالد المباشر كذلك، فيصح أن يقال: يعقوب والد يوسف أو أبوه، ولا يصح

---

(1) تفسير الطبري 12/ 151 مرجع سابق.

(2) ألاهو، ريمون، حوار في الرواية الجديدة، ترجمة نزار صبري، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1988، ص55.

(3) تشيتيرين، أ.ف، ترجمة د. حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ب ت، ص 71.

(4) التواني، دكتور مصطفى، فن الرواية الذهنية لدى نجيب محفوظ مطبعة تونس قرطاج، 1981، ص23.

(5) الشاذلي، دكتور عبد السلام، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة 1882- 1985، دار الحداثة، ط1، بيروت، 1990، ص133.

(6) الغرناطي، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1398هـ- 1978، 194/4.

أن يقال: إبراهيم والد يوسف، فيقال: أبوه، وكل النسب بين يوسف وإبراهيم آباء ليوسف عليهم السلام.

ج - الآيات من 7-14

(لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ {7/12} إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ {8/12} اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ {9/12} قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ {10/12} قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ {11/12} أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {12/12} قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ {13/12} قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ)

إن اقتران الرؤيا مع غيرة إخوة يوسف كانت مقدمة لمحنة، وصلت بهم حد التفكير بقتله، أو الخلاص منه لما رأوا من حب يوسف عند أبيه، وفي لفظ "يوسف وأخوه" أمران ينبغي التوقف عليها، فيوسف عليه السلام وبنيامين المراد بلفظ "أخوه" شقيقان (أمهما واحدة) والإخوة العشرة الباقون من أبناء يعقوب من أم ثانية، ثم تخصيص الشخص بنسب أو صلة أنت فيها شريك، فيه معنى السلب، فيوسف وبنيامين إخوة للجميع ولكن لما رأوا من أثرة أبيهما لهما، استخدموا لفظ "يوسف وأخوه" ليقسموا الأخوة قسمين: يوسف وأخوه بنيامين قسم، والباقون قسم آخر، وهي بداية الشرارة، ومهما يكن ففي الآيات نص يدرك بالعقل، عبرت عنه القرينة الحالية، أو سمها المعنى والسياق[1] وتقدير النص المحذوف يقع في أمرين هما:

1. اجتماع الإخوة، وتداولوا أمر الخلاص من يوسف، بطريقة أو بأخرى

(1) لفظ قرينة حالية، أو مقالية، وكذلك الإحالة الداخلية والخارجية في النص من مفرزات علم الدلالة، ذكرنا ذلك في مكان سابق في دراستنا.

2. خرج عليهم من أنفسهم من يعارض القتل، ويستبدله بالإلقاء في بئر وقيل: هـو أخـوهم الأكبر يهوذا[1].

وبعد الاجتماع بزمن يعلمه اللــه اسـتأذنوا أبـاهم في ذهـاب يوسـف معهـم في رحلة ترفيهية، تلطفوا في سؤال أبيهم، وتوددوا إليـه، لأن المـراد غـالٍ عنـد الطـرفين كـل بطريقته.

حذف الكلام من النص

الأصل في الكلام أن تكون أركانـه ومكوناتـه كلهـا متواجـدة في الـنص، تسـتدعي بعضـها بعضـا، وتشـد أركانهـا بـبعض، فـالمعنى مـع اللفـظ "كـالحليف"[2]، والمعنـى مـع غـير اللفـظ "كالدعي"[3]، ويغتفر، من معاني البلاغة أن يحذف لفظ إذا لم تكن تكلفه في الوصول إليـه[4]، أو أن يتمكن المعنى الأول من الدلالة على المعنى الثاني[5] "المحذوف".

وقد وسم أهل البلاغة مثل ذلك بالإيجاز، واهتدى إليه الدلائليون بمـا يعـرف بالإحـالات المرجعية[6]، وعبر عنه أهل القصة الحديثة بمـا يفهـم أنـه مبنـي عـلى ثقافـة الشـخص في حـوار القصة[7]، وبذلك ما يشبه رأي الدلائليين، ترى مَن مِن المذكورين لديه الحكمة وفصـل الخطـاب في النص المحذوف؟

---

(1) تفسير الطبري، 12/ 164.

(2) الجرجاني، الإمام عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفـة للطباعـة والـنشر، بـيروت- لبنان، 1978م، ص19.

(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص206.

(4) الآمدي، أبو الحسن علي بن أبي محمد التغلبي، الأصولي الفقيه، الملقب بسيف الـدين، الإحكـام في أصـول الأحكـام، تحقيق الدكتور سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط1، 1984م 2/ 229.

(5) السابق، 2/ 229.

(6) أحمد مختار علم الدلالة، ص31، مرجع سابق.

(7) النازي، محمـد عـز الـدين، السرد في روايـات محمـد زفـرات، ص23، و دكتـورة سـيزا أحمـد، بنـاء الروايـة، ص180، مرجعان سابقان.

أظن ولا أتعالم على فئة من المذكورين- أن أهل النحو هم من لـديهم الفصـل في ذلـك، لأن قاعدتهم تنص على إبقاء عناصر الكلام، ولا يحـذف إلا بمسـوغ مـن السـياق، فقـد حـذفوا المبتدأ بشروط، وكذلك الخبر، أو كلـيهما أو جـواب الشرط، أو المفعـول بـه، وهـم مـن يتلاقـون بذلك مع أهل البلاغة، فما أصدق قول: النحو والبلاغـة وجهـان لعملـة واحـدة، وإن المفسريـن أكثر ما يبنون عليه تأويلاتهم من علمي النحو والبلاغة، فالتفصـيلات تقابـل عنـدهم بالإطنـاب، والحذف يقابل بالإيجاز، وأما وجه الخصوص في النص العقلي المحذوف من الآيات، فهـو أدعـى إلى الإيجاز بالحذف لسببين هما:

1. إن المخاطب هو الرسول صلى اللـه عليه وسلم أوتي مـن الفصـاحة والبلاغـة مـا يكفـي لتقدير كل ما دار بين إخوة يوسف عليه السلام من خلاف.
2. القصة قامت علي المراوحة بين الإيجاز والإطناب، بحسب مقتضى الحال، والحال هنـا أن إخوة يوسف مهما اختلفوا كانوا مجمعـين عـلى الخـلاص مـن يوسـف باسـتئذان لطيـف، محبب إلى النفس، أدعى إلى القبول والاستحسان، ولكن الأمر لا يخلو مـن غرابـة في لفـظ (**وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)** فتنضوي تحته أمور كثيرة أهمها:

1. إن التفريط بيوسف عليه السلام، لم يكن نابعاً من قناعة داخلية عند أي منهم
2. إنهم أرادوا أن يسـتأثروا بحـب أبـيهم، ولا سـبيل لهـم إلى ذلـك بحسـب تقـديرهم- إلا بالخلاص من يوسف عليه السلام
3. إن بذرة الخير لم تنتزع من نفوسهم

ونترك الحديث للروائيين المحـدثين ليصـفوا مثـل هـذا السـلوك الـذي مارسـه إخـوة يوسف، قالوا عن مثل هذه الشخصيات: "شخصيات لها عناصر مبثوثة طيلة الـنص"[1]، ومـا أصـدق انطبـاق ذلـك عـلى أخـوة يوسـف، فقـد قـاموا بـأربع رحـلات إلى مصر، بالإضـافة

(1) موم، سومر ست، عشر روايات خالدة، ترجمة سيدجاد، دار المعارف، بمصر 1971، ص138.

إلى رحلتهم التي ألقى فيها يوسف بالبئر، وقالوا: الشخصيات ذات السلوك المتقلب"[1]، ويقصدون بلفظ متقلب: الشخصيات التي تباغت القارئ بما لا يتماشى مع منزلتها، فمنزلة إخوة يوسف أبناء نبي، فكيف يدبرون فعل هذه المكيدة؟ وغير ذلك من أوصاف في روحها إسناد دور أو أدوار مستهجنة إلى الشخصيات في ما وسموه بـ "مغامرات أشخاص القصة".

ولما تقدموا بطلبهم بأسلوب أدعى إلى الموافقة، أبدى لهم يعقوب عليه السلام عذرين، أنه لا يستطيع الصبر على فراق يوسف، ويخشى أن يأكله الذئب، فمن حيث إنه لا يستطيع الصبر على فراق يوسف، فقد جاء اللفظ على قدر معناه في النفس، وأما من حيث ذكر "الذئب" ففي الذئب أقوال، واجتهادات كثيرة أبرزها:

1. ورد في تفسير القرطبي هذا النص عن الذئب

ذكر الذئب لأنه رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف [هجم عليه] وقال الكلبي إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل، وكان يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته [هجمت عليه] تريد أكله، فذرأ عنه واحد، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام، فكانت العشرة إخوته لما تماثلوا على قتله، والذي دافع عنه هو أخوه الأكبر يهوذا، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام، وقيل أرادهم بالذئب، فخوفه إنما كان من مثلهم له، فكنى عنهم بالذئب، قال ابن عباس فسماهم ذئابًا، وقيل هو الذئب حقيقة"[2].

---

(1) فوتو، برناردي، عالم القصة، ترجمة دكتور مصطفى هوارة، القاهرة- نيويورك 1969، ص96

(2) تفسير القرطبي، 9/ 140، مرجع سابق.

2. وقال الزمخشري: "هو الذئب حقيقة"[1]

وقيل: لما سقط من يعقوب لفظ الذئب، فكان بذلك كأنه لقنهم الحجة، لأنهم جاؤا أباهم بعد تنفيذ المكيدة يبكون ويقولون: أكله الذئب، فالقاسم المشترك في الأقوال المذكورة، إن يعقوب عليه السلام وافق على ذهاب يوسف مع إخوته في رحلة غير مطمئن إلى عواقبها، وإن أقسموا ليحفظنَّه، فنحن نستند عقلاً إلى أسباب الموافقة بما يلي:

1. إن عدم موافقة يعقوب على ذهاب يوسف مع إخوته يقوي فيهم الغيرة والإصرار على تنفيذ مكيدة في المستقبل، وربما تكون من وراء ظهره.
2. اضطلاعه بمسؤوليته الكاملة في القضاء على ظاهرة الغيرة من يوسف وبنيامين وفي ذهاب يوسف في هذه الرحلة رسالة إلى أبنائه فيها نفي التهمة في عدم محبته لهم.

وإن لم يكن شيء من ذلك، لا يغيب عن المسلم أمران هما:

أ. في لفظ "**وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ** " من الخطأ أن نقول: سقطت منه كلمة سهلت لأبنائه العذر في أن يقولوا أكله الذئب لاحقًا كما ذهب بعض المفسريين، فالنبي يعي ما يقول ويقول ما يعي.

ب. إن إرادة الله سيرت يعقوب إلى قضائه وقدره، فوافق لأنه لو لم يوافق لما انبنت القصة من أساسها.

لطيفة: الروائيون المحدثون يقولون عن مثل هذه الحالة ما معناه "إن المؤلف، أو الكاتب قد سير هذا الشخص، أو ذاك إلى أمر غيبي [أي قدر لا تعرفه هذه الشخصية] فأصبح محكومًا بإرادة الكاتب"[2]، أو المغامرات الكبرى[3]، بحسب تعبير غير الإسلاميين.

---

(1) الكشاف، 2/ 448، مرجع سابق.

(2) انظر: الراوي، فاتن إسماعيل، شخصية المثقف في الرواية العراقية 1928- 1980، رسالة ماجستير- كلية الآداب- جامعة بغداد 1994م، ص133. ونجيب محفوظ، الرؤية، والأداة، ص24، مرجع سابق.

(3) ليور، ميشار، الدراما، ترجمة أحمد بهجت قنصة، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1965، ص215.

والقاسم المشترك بين الفريقين في ما ذكر أن يعقوب عليه السلام لم يكن مطمئنًا إلى الرحلة، سواءٌ أكان ذلك مستمدًا من حلمه، أم من بصيرته، والآيات التالية تجيب يعقوب على هاجسه والقارئ على ترقبه في ما يحدث ليوسف في هذه المغامرة.

د. الآيات من 15- 18

(فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُـمْ لاَ يَشْعُرُونَ {15/12} **قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ** وَتَرَكْنَا **يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** {17/12} **وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {18/12})**

فأيتها النفس أجملي جزعًا ... إن الذي تحذرين منه قد وقعا

ورد في تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: أن إخوة يوسف تخيروا وقت العشاء ليكون إتيانهم متأخرًا عن عادتهم، وبكاؤهم دليلاً لهم[1]، فألقي يوسف في البئر، وتلقى تطمينًا (**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم**) كي يكون هذا الوحي منسجمًا مع الحلم وعبر عن مثل ذلك عند المحدثين الروائيين بـ"الامتثال للزمن"[2]، ما معناه أن الشخصيات تدور في فلك الزمن، وهو الذي يجعل الأحداث تستدعي بعضها، فلفظ "وأوحينا إليه لتنبئنهم" هو المكمل لحدث الرؤيا وكان الإلقاء في البئر يعني عند إخوة يوسف نهاية مرحلة، أو انتهاء أزمة، وعند يوسف يعني هذا الأمر دخول مرحلة ثانية عملية من مراحل التبشير، فالسلوك الذي قام به إخوة يوسف عندما ألقوه في البئر، عبر عن مثله

---

(1) السعدي، شيخ عبد الرحمن بن ناصر، المجموعة الكاملة، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، المملكة العربية السعودية، 1412هـ- 1992م، 4/ 12.

(2) إبراهيم، دكتور عبد الله، البناء الفني في الرواية العراقية، ص66، مرجع سابق.

حديثًا بـ" الدفع بالشخصيات نحو أزمة مفترضة"[1]، لأن الأزمة التي وضعوا أنفسهم فيها تفـوق في حجمها أزمة يوسف، لما سيترتب عليها، وقيل: إن مثـل هـذه الشخصـيات لا تـدرك دوافعهـا الحقيقية، ويتلاقى التعبـيران في مـا يمكـن أن نطلـق عليـه "شخصـيات مأزومـة"[2]، والمحـدثون بالطبع لا يقصـدون يوسـف ولا إخوتـه، فـالأمر قيـاسي عـلى ضـوء مطابقتنـا هـذه القصـة مـع تحليلات المحدثين للقصص والروايات التقليدية، أما يوسف عليه السلام فيوسم من مثله في هذا العمل بـ" الشخصية ذات الطبيعة الحدثية"[3]، ووظيفتها الاضطلاع بـالأعمال أو تقبلهـا، وفي مـا يلي أبرز ما نستند إليه من وسم إخوة يوسف بـ"الشخصيات المأزومة" من خلال نقلهـم حـدث "الذئب":

أ- هم الذين شككوا بروايتهم "أكله الذئب" بقولهم:(**وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**) قبل أن يسمعوا الرد، [الآية: 17]

ب-لم يردوا عـلى مـا قالـه أبـوهم: (**بَـلْ سَـوَّلَتْ لَكُـمْ أَنفُسُـكُمْ أَمْـرًا فَصَـبْرٌ جَمِيـلٌ وَاللَّـهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**)[الآية: 18]

ج- روي أن يعقوب عليه السلام قال بصريح العبارة: كذبتم لو أكله الذئب لمزق القمـيص، أو قال ساخرًا: "ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه"[4]، دون أن يسمع منهم ردًا، أو تعليقاً.

وفي موقف يعقوب عليه السـلام مـع أبنائـه، مـا يـدهش أولي الألبـاب، ولا نقبـل أن يوسم في التحليلات الحديثة للقصة بأقل من "الشخصية العميقة التي لم تهتـز فيهـا القـدرة والإرادة في تسيير الأحداث كما تشاء" فضلاً عـن سـمات النبـوة وفي مـا يـلي تقبـل الحكـيم

(1) حسين، أنيس زكي، السجين (ر) دار مكتبة الحياة، ط1، بيروت، 1961م، ص55.

(2) السابق نفسه، ص55.

(3) طرائق تحليل القصة، الصادق قسومة، 150/1 مرجع سابق.

(4) تفسير الطبري 12/ 164.

للحدث، وفتحه ملف التحقيق، واستحداث طرائق في البحث عن يوسف، بصبر الأنبياء وعمل المحققين ورجال الأمن الأكفياء:

1. تقبله قضاء ربه "فصبرٌ جميل" ولم يقبل على العقاب، خلافًا لما هو متوقع في مثل هذه الحالات.
2. جعل أولويته نجاة يوسف، وليس عقاب أبنائه، لأن في العقاب تميعًا لقضيته وهي نجاة يوسف.
3. الوصول بأبنائه إلى مرحلة تأنيب الضمير، ولا أدل على ذلك من حرص يهوذا بعد حكاية الذئب على القيام بكل ما يفرحه، فهو الذي ألقى القميص على وجه أبيه.
4. ظل يوجه أبناءه إلى أماكن في الأرض للبحث عن يوسف، وهم يستجيبون، وفي ذلك اعتراف ضمني نجح عليه السلام في انتزاعه من أبنائه بأن موضوع الذئب ادعاء كاذب، وإلا كيف يستوي لديهم البحث عن شخص قد مات؟

فائدة:

في تأني وصبر يعقوب عليه السلام مع بنيه، وتجنب العنف عبر، ولفت انتباه إلى ما يقوم به بعض رجال الأمن والمحققون هذه الأيام من ممارسة أساليب العنف مع الجناة، ولا سيما عند القبض عليهم، ما يجعل الجناة يصرون على عدم الاعتراف أو الإدلاء بأي معلومة مقربة إلى الهدف، لأنهم يرون في الإنكار مهربًا من الجرم، فلو فعل يعقوب عليه السلام مثل ذلك، لماتت القضية وهي في المهد، فالذي ينجح في الكشف عن ملابسات قضية عمرها أربعون عامًا هو بحق أنجح رجل مخابرات في التاريخ.

هـ الآيات من 19- 22

(وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللـهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {19/12} وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ {20/12} وَقَالَ الَّذِي

اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ {21/12} وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {22/12})

في الآيات ثلاث مراحل من حياة يوسف عليه السلام هي:

1. مرحلة إلقائه في البئر
2. مرحلة الاسترقاق
3. مرحلة تمام الرشد، وقيل: هي ثلاثون سنة وفيها الإشارة الثالثة إلى النبوة

ففي مرحلة البئر ذكر القرطبي أن يوسف مكث فيها ثلاثة أيام[1]، واكتفت الآيات بذكر نتيجة الحدث لأنها أبرز الأخطار التي تمت منذ خروجه مع إخوته إلى أن ألقي فيها ومن بينها سوء معاملتهم له وهم في الطريق، ولعل من المرتكزات التي قامت عليها القصة الإعراض عن التفاصيل التي لا تؤثر على نتيجة سير الحدث، وكذلك ما تدوول من كلام بين السيارة الذين استخرجوه من البئر سكتت عنه القصة في هذه الآيات وهو أشبه ما يكون في فن القصة الحديث "بالحوار الباطني".

ومما يستدل على أن هناك تفاصيل كثيرة تمت بين السيارة، لفظ (**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ** وَكَانُواْ **فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**) الآية: 20] بمعنى أنهم ملوه وهم في الطريق، وقبل ذلك قال واردهم "يا بشراي" لما سُر بجمال يوسف وأخوف ما خافوا عليه من أن يكون يوسف قد هرب من سيده، فيتعرفه في الطريق ولا يستفيدون منه شيئًا، لذلك زهدوا به وباعوه.

ثم يدخل يوسف في ما عرف بين المفسرين بالمحنة الثالثة وهي مرحلة الاسترقاق دون أن تصرح الآيات الكريمة باسم الذي اشتراه وهو عزيز مصر، إبقاءً على عنصر التشويق (**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ**) .

(1) تفسير القرطبي، 9/ 140.

وتتحقق في أمر الشراء ثلاثة هي:

1. إن الذي اشتراه أراد أن يوليه عناية خاصة، لا تتحقق فيها معاني الاسترقاق
2. إن يوسف عليه السلام عند استرقاقه كان يافعًا
3. وجود فاصل زمني طويل في عمر القصة ما بين تاريخ الاسترقاق وتاريخ البعثة لأن بعثة الأنبياء عليهم السلام كانت في تمام الرشد

و. الآيات من 23- 29

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {23/12} وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ {24/12} وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {25/12} قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ {26/12} وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ {27/12} فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ {28/12} يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ {29/12}) وتمثل هذه الآيات أخطر المراحل في حياة يوسف عليه السلام، وهي المحنة الرابعة من حيث التسلسل الزماني، والمحنة الثالثة من حيث مكان الأحداث على النحو التالي:

1. المحنة الأولى: في الرؤيا
2. المحنة الثانية: إلقاؤه في البئر
3. المحنة الثالثة: الاسترقاق
4. المحنة الرابعة: مراودة امراة العزيز له، وربما عبر المفسرون عن المحنة الثالثة والرابعة بلفظ "المحنة الثالثة" لأنهما في مكان واحد.

وتشكل هذه الآيات بؤرة لسلسلة مـن الأحـداث في أنـواع السرد ويتبـوَّأ يوسـف النـوع الثالث منها بحسب تلاقي تفسير السلف مع مثل هذا السرد عند المحدثين على نحو مما يلي:

1. السرد الأفقي: وهو السرد الذي يبدأ من نقطة في حياة الشخصية متجهًا إلى ما بعد هذه النقطة من دون العودة إلى الماضي.

وتقابل به المراحل أو المحن التي مر بها يوسف من الرؤيا إلى مشكلة امرأة العزيـز في هـذه الآيات، فكان كل حدث يتلوه حدث آخر من غير أن يعـود شـخص يوسـف إلى مكـان مـا تركته الأحداث.

2. السرد المنحني: وهو السرد الذي يبدأ مـن لحظـة في عمـر الشخصـية متجهًـا إلى الأمـام، لكنه يعود إلى ما قبل هذه اللحظة كلما دعت الحاجة.

فالذي لا يصدق على يوسف في هذا النوع من السرد أنه لم يعد بشخصـه، ويصـدق عليـه أنه أرسل رسالتين أخبر فيهما عن أمره عندما تبـوَّأ في مصر أرقـى المناصـب، ففـي الأولى طلب أخاه بنيامين وفي الثانية طلب أبويه.

3. السرد اللولبي: وهو الذي يبدأ مـن نقطـة في حـاضر الشخصـية متجهًـا إلى الأمـام، لكـن العودة إلى الخلف تأخذ أهمية استثنائية فتتكرر الحادثة الواحدة أكثر من مرة.

ويصدق على يوسف من هذا النوع من السرد ما كان من أمر الساقي الـذي سـجن معـه، فقد جرت مراسلات ما بـين يوسـف والملـك عـن طريقـه، آخرهـا أن يوسـف خـرج مـن السجن مع رسوله الساقي بحلة الملوك[1].

4. السرد المتراجع: وهو سرد يبدأ من نهاية القصة متجهًا إلى الماضي"[2]

---

(1) النسقي، الإمام الجليل العلامة أبو البركات، عبد اللـه بن أحمد بن محمود، المكتبة الأموية، بيروت- دمشق، مكتبـة الغزالي، حماه، غير معروفة سنة النشر، 2/ 376.

(2) البناء الفني لرواية الحرب في العراق، 135، مرجع سابق، بتصرف.

وهذا النوع لا يصدق على قصة يوسف لأنه يختص بالروايات المختلقة، أو المتكلفة، وقصة يوسف قرآنية، وتتلخص فكرة هذه الآيات في أن امرأة العزيز توددت، وتلطفت بالطلب إلى يوسف كي يضاجعها، وفشلت في ذلك مرارًا، ثم ألقت بهذه التهمة على يوسف أمام سيدها لما افتضح أمرها لديه، ثم طلب سيدها من الاثنين كتمان الأمر مع قناعته ببراءة يوسف وزيف ادعاء امرأته، وفي ما يلي تتبع أقوال المفسرين للمراحل التي مرت بها هذه المراودة، مرورًا بـ"همت به وهم بها" وانتهاءً بـ"إنك كنت من الخاطئين":

أولاً: لفظ "راودته"

أ- قال القرطبي: "كان في القصر سبعة أبواب أغلقتها، ثم دعته لنفسها"[1]، ويبدو أن القرطبي قفز من ممارسات سلوكية جسدية قامت بها قبل أن تقفل الأبواب، يرد ذكرها عند غيره، فأخذ لفظ "راودته" بالإيجاز من حيث الأسلوب البلاغي، ثم ذكر سبب الإغلاق مباشرة.

ب- عبر المفسرون عن المراودة بقيام امرأة العزيز بمجموعة سلوكات إغرائية حركية كلها تقع في معنى المراودة ومن ذلك أنها انبطحت على الأرض[2]، أو توجهت بجسدها إليه[3]، ثم ذكروا أن امرأة العزيز، وكان اسمها زليخة وقيل: راعيل قد استثيرت لأن العزيز كان لا يأتي النساء، فضلاً عن غاية الاستثارة من جمال يوسف[4].

---

(1) تفسير القرطبي، 9/ 163.

(2) الدمشقي، الإمام سلطان العلماء، عز الدين عبد العزيز عبد السلام السليمي الشافعي، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الوهيبي، ط1، 1416هـ 1996، المملكة العربية السعودية، الإحساء 2/ 115.

(3) السابق نفسه، 115/2.

(4) السابق نفسه، 2/ 115.

ج- كان المفسرون يرددون عبارات من مثل إنها توجهت إليه بقصد، أو بعزم، أو إرادة[1]، وعند هذا الحد يكون قد استبطنها الشيطان وأصبحت لديه كالدمية، يقلبها كيف يشاء، ولا مانع لديها من إبراز ما هو أكثر من ذلك في مرحلة "همت به" ولكنها في هذه المرحلة كانت تمارس سلوكًا أشبه ما يكون باستعراض المفاتن لأنها كانت تتدرج في أساليبها للحصول على ما تريد بطرق شتى فهي تترنح في الحجرة بلا وعي.

د- وفي مرحلة من مراحل ترنحها ما ورد في مسند علي رضي الله عنه من كلام هذا نصه "فقامت إلى صنم مكلل بالدرر والياقوت في ناحية البيت، فسترته بثوب أبيض بينها وبينه، فقال يوسف: أي شيءٍ تصنعين؟ فقالت: أستحي أنا من إلهي أن يراني على هذه السوأة، فقال يوسف: تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب، ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت، ثم قال: لا تنالينها مني أبدًا وهو البرهان"[2].

وفي مجمل مراحل المراودة ما يمكن أن نطلق عليه بحسب وصف الروائيين المحدثين أن شخصية يوسف كانت مكثفة لأنها تقاسي وتفكر، وكذلك امرأة العزيز[3]، وباتفاق الاثنين في حجم المشكلة، مع الاختلاف في الهدف، فهم يوسف أن يخلص من المأزق، وهم امرأة العزيز أن تنال ما تريد، وبينهما فرق، فيوسف يفكر بوعي الشخصية للحدث، وامرأة العزيز امرأة مأزومة.

---

(1) البحر المحيط، 5/ 293، مرجع سابق، تفسير أبي السعود 2/ 63، تفسير الفخر الرازي 18/ 119.

(2) البرهان فوزي، العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، كنز العمال في سند الأقوال والأفعال، ضبطه وفسر غريبه الأستاذ الشيخ حسن زوق، وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه الأستاذ الشيخ صفوة السقا، نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامي، حلب، أميول، أمام جامع أسامة، ط1، 1389هـ 1969م، 440/2.

(3) ولتوان، الرواية الإنجليزية، ترجمة صفوت عزيز جرجيس، مراجعة د. مرسي سعد الدين، مشروع النشر المشترك، بغداد- القاهرة، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بلا تاريخ، ص178.

وكذلك لا بد من كلمـة تقـال في مراحـل المـراودة التـي ذكرناهـا، فمـن حيـث هـي أحداث تمت، كان سندنا فيها تفسير السلف، في ظل توجيه الرواية الحديثة، أمـا مـن حيـث تسلسل هذه المراحل فقد نوفِّق في الترتيب أو لا نوفِّق، ليس هذا هو المهم بمقدار ما نريـد أن نوضح للقارئ أن المراودة كانت حدثًا في القصة شكل بؤرة نصـية ترتبـت عليهـا أحـداث ونتائج.

ثانيًا: لفظ "هيت لك"

هذا اللفظ في قراءة من قرأ "هَيْتَ" هو اسم فعل أمر بمعنـى أسرع[1]، ويـذكر أن صـيغ الأمر في اللغة العربية أربع صيغ هي:

1. فعل الأمر نفسه نحو: أسرع، أو أقدم ونحوها
2. الفعل المضارع المقترن بلا الناهية: نحو لا تتأخر
3. المصدر النائب عن فعل الأمر: نحو: أتباطؤًا عني؟
4. اسم فعل الأمر: نحو تعال أوهَيْتَ التي وردت في الآية الكريمة

وهذا التدرج بحسب الأهمية، وأقوى هذه الصيغ مـا جـاء في الآيـة الكريمـة وهـو اسـم الفعل، ويلجأ إليه في العربية اختصارًا للفظ واستجابة لمقتضى الحال في الأوضـاع النفسـية التـي تقتضي الاختصار[2]، لذلك عبر بـ"هَيْتَ" كي يكون دالاً على ما آلت إليـه الحالـة النفسـية لأمـرأة العزيز، وهو من الصيغ المرتجلة، والصيغ المرتجلة لم تنقل عن أصل في اللغة من مثـل: آهٍ، بـسٍ، هيًّا[3]، وقالوا: انبطحت على الأرض وقالت: "هَيْتَ"[4].

---

(1) ابن يعيش، بن علي، شرح المفصل، بيروت- لبنان، عالم الكتب (غير معروفة سنة النشر)، 4/ 32.

(2) الزمخشري، أبو القاسم، محمود بن عمرو، المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط2، (سنة الـنشر غـير معروفة)، 194/1.

(3) السابق، انظر الصفحات من 193- 210، في دلالات أسماء الأفعال.

(4) تفسير الدمشقي، 115/2، مرجع سابق.

وقد ذكر المفسرون معنى "هَيْتَ" في اللغة من مثل أسرع، قالته بعد نفاد صبرها وميزوا بين لفظ "هَيْتَ" ولفظ أسرع[1]، دون ربط "هَيْتَ" بالأزمة النفسية وقت الطلب، واكتفوا بـذكر هذا اللفظ بصفته مرحلة من المراحل التي تدرجت بها امـرأة العزيـز لتحقيـق الهـدف، ومهـما يكن فقد فشلت سلوكاتها في "هَيْتَ" كما فشلت في "المراودة".

ثالثًا: لفظ "همت به وهم بها"

كان أسوأ ما قامت به امرأة العزيز في المراحل السابقة أنها انبطحت على الأرض ودعـت يوسف بـ"هَيْتَ"ومن الطبيعي أن يفكر صاحب الغاية في وسـيلة أخـرى بديلـة مـما فشـل بـه، فكان أن "همت به وهم بها" وحظيت الآية (**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَـوْلا أَن رَّأَى بُرْهَـانَ رَبِّـهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِـينَ**)[الآيـة: 24] مـن سـورة يوسـف باجتهادات المفسرين واللغويين في تأويل لفظ "همَّ" وكي يتسنى لنا تأويل معنى هـذا الفعـل لا بد من وقفة لغوية عنده، فهناك "هم" الدال على أهمية الشيء نقـول: يهمـه الأمـر، وهـو مـما يتعدى بنفسه، وكثيراً ما يقع مفعوله ضميراً، ومن معانيه: يلزم ويعني ونحوها[2]، وهناك "هـمّ" الدال على نية فعل الشيء[3]، وهو المقصود بالآية الكريمة ونية فعل الشيء، تقع في إمكان القيام به، أو عدم القيام من حيث القصد والاعتزام، ومما يعنيـه هـذا الفعـل أن الشيء خطـر ببالـك، ويعني كذلك أن تدفع عنك ببدنك خطرًا ما.

وفي ما يلي أبرز تفاسير السلف لِـ"همَّ" و "همَّت"

1. قال الفخر الرازي: "إن همت به وهم بها هو حديث النفس، مـثلما يـرى الصـائم المـاء فتحدثه نفسه لكنه لا يطاوعها فيشرب"[4]

(1) انظر: تفسير البحر 5/ 293، تفسير الفخر الرازي 18/ 119، تفسير أبي السعود 2/ 63.

(2) لسان العرب، ابن منظور، مادة: هم.

(3) لسان العرب، ابن منظور، مادة: هم.

(4) تفسير الفخر الرازي 18/ 119، القرطبي، 9/ 163.

2. قال أبو السعود: "إنه مال إليها ميلاً جبليًا لا أنه قصدها قصدًا اختياريًا"[1]
3. قال الدمشقي: "إنه دفعها عنه"[2]

وإذا ربطت اللفظ "همَّ" بالحدث الذي كان يجري بينهما في الحجرة أدركت أن تفسير الدمشقي أقرب التفاسير إلى المراد، لورود مطمئن ليوسف من الوحي بأنها لن تنال شيئًا، ولاستباق الاثنين الباب في حالة ذعر، هذا يهرب، وهذه تلاحقه ممسكة بقميصه، وذلك ترجمة حقيقية مباشرة لحصول أشبه ما يكون بمشاجرة بين الاثنين، ومهما يكن فقد "رأى يوسف برهان ربه" لحظة هذا النزاع فما هو البرهان الذي رآه حتى انصرف عنها إليه؟

قال المفسرون في لفظ "برهان ربه" مثلما قالوا في همّ وهمّت:

1. ورد في تفسير العلامة علاء الدين المتقي في قصة الصنم الذي سترته بثوب أبيض كي لا يرى سوأتها، أن يوسف عليه السلام رأى برهان ربه في تلك اللحظة، لأنها وقفت أمام الصنم عارية فسترته، والأولى أن تستر نفسها، والبرهان هو الوحي في هذا الموقف[3].
2. ورد في تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ ناصر السعدي أن البرهان هو ما مع يوسف عليه السلام من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله[4].
3. ورد في تفسير أبي السعود أن يوسف عليه السلام لم يقع منه "هم" البتة، لأن هذا ينافي العصمة[5].

(1) تفسير أبي السعود 2/ 63.
(2) تفسير الدمشقي، 115/2.
(3) تفسير العلامة علاء الدين المتقي، 2/ 440، مرجع سابق.
(4) تفسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن بن محمد السعدي، 4/ 17، مرجع سابق.
(5) تفسير أبي السعود 2/ 63، مرجع سابق.

وفي تفسير أبي السعود هذا ما يتوجب التوقف عليه، ففي قوله: "ينافي العصمة" ما يفهم أن مراحل: راودته، وهمت به، وهم بها، ورأى برهان ربه، تمت وقد أبلغ يوسف بالرسالة لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء، وهذا الموقف فيه عودة إلى الوراء عند قوله تعالى: (**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {22/12}**) [الآية: 22] وقد عبر في تحليل الروايات الحديثة عن السلوك الذي تعيد فيه الرواية شخصية إلى الوراء بالسرد واللولبي[1]، مع فارق ما بين صدق الرواية كما في قصة يوسف، وتدخل الكاتب ليجعل الشخصية مكثفة تدور في الأفق الذي يريده كما في القصص التقليدية، لأن الكاتب في الروايات الحديثة محكوم بأحداث ونتائج، وتسيير الأمور بحسب رؤية معينة، وفي ظل الأزمة النفسية والفكرية، والصدام المتسارع بين عقل يوسف وعاطفة امرأة العزيز، يأتي العزيز على قدر، ويطرق الباب وامرأته تعيش لحظة من لحظات غياب الوعي واستبطان الشيطان في كل خلية من خلايا جسمها، في هذه الأثناء يدور حوار باطني داخل شخصية امرأة العزيز فيه طمس للواقع، وغمط للحق، وصراع نفسي تقع فيه الشخصية أمام مخاطرات على مفارق طرق وتناقضات، وهذا هو حال الشخصية المأزومة، فهي لا تريد أن تفرط بيوسف لأنها تحبه، ولا تريد أن تظهر أمام العزيز بمظهر الرذيلة، إنها أمام أمرين أحدهما العلقم، فيدخل الملك، ويرى آثار الانفعال على الاثنين، وسرعان ما تقلب الحقيقة وتقول(**مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**)[الآية: 25]، ثم ينطق الطفل الذي في حجرها ويصدر شهادة، ينبني عليها حكم (**وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ**)[الآية: 27] شهادة أخرست امرأة العزيز وألجمتها عن إبداء التفاصيل, فالأولى لو كانت صادقة أن تقول: يقتل بدلاً من أن تقول:(**يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**)[الآية: 25] لكن الطبع غلب التطبع، ثم ينتقل الحوار الباطني إلى شخصية العزيز

---

(1) البناء الفني لرواية الحرب في العراق، 135، مرجع سابق.

نفسه، ويطلب من يوسف أن يكتم الأمر، ويطلب من امراته أن تستغفر لذنبها، والاستغفار هو طلب الصفح والمسامحة، ولكن لا يدرى هل تطلب ذلك من العزيز نفسه، لأنه قد تأذى من سلوكها أم من إلههم الذي هو صنم في البيت[1] أم من الله جل شأنه، لأن سلوك العزيز منذ استرقاق يوسف ولحين تبوئه مكانًا رفيعًا في مصر ظل منسجمًا، في ثناياه وازع ديني يعلمه الله، فيصدق على العزيز أن شخصيته أشبه ما تكون بالشخصية الكثيفة في مفهوم الرواية الحديثة لأنها تمثل عالمًا شاملاً معقدًا في ثناياه تنمو فيه قصة معينة ذات ملامح مختلفة إلى حد التناقض[2]، فلو عاقب العزيز، لكان هو أول من تأذى من العقاب، فكان سكوته على الأمر مؤقتًا لدرء الرذيلة أولاً، ثم التفكير في حل مناسب في ما بعد، ومن المفسرين من ذهب في سكوت العزيز هذا مذهبًا قالوا فيه: إن العزيز لم يكن يأتي النساء[3]، لكن مجريات الأحداث تؤيد أن سلوك العزيز سلوك الحكماء، ولم يكن سكوته بسبب أنه لا يأتي النساء، ومهما يكن ففي الآيات صفحة معقدة من حياة الشخصيات الثلاث: يوسف، والعزيز، وامرأة العزيز، وكل منهم قد دخل مرحلة قاسية في حياته، يترشح بعدها إلى عمل آخر بحسب رؤية الدراسات النفسية في هذا المأزق من حياة الشخصية[4]، فيوسف أمامه طريق شاق وصعب، فهو مسترق، وفي بيت سيدة لا تتوقف عن محاولاتها الإغوائية، والعزيز يمكن أن تجبره الظروف على تقمص شخصية المنتقم لشرفه، وبالفعل تكشف الآيات التالية عن شكل آخر من أشكال المغامرة تعيشه الشخصيات الثلاث.

---

(1) كنزل العمال، علاء الدين المتقي، 2/ 440، مرجع سابق.

(2) طرائق تحليل القصة، الصادق فسومة 1/ 149، مرجع سابق.

(3) تفسير الدمشقي، 2/ 115، مرجع سابق.

(4) عبد الجبار، محمد محمود، الشخصية في ضوء علم النفس، دار الحكمة، بغداد، 1990، ص20.

ز. الآيات من 30- 34

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ {30/12} فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ {31/12} قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ {32/12} قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ {33/12} فَاسْتَجَابَ **لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {34/12})** في الآيات السابقة ما يفهم أن العزيز حافظ على اتزانه في أقل وصف منصف مهما فسّر المفسرون أسباب سكوته على الرذيلة، فكان همه أن يكتم الأمر، ولكن هل ستصبر امرأته على هواها؟ أم ستظل تعمه في غيها وظلالها؟ فما الذي تفعله؟ وما الذي يفعله العزيز؟ وماذا يطال يوسف من الاثنين؟ أما العزيز فإن سلوكه قد عبر عنه السلف بتعبيرات مختلفة من مثل:

1. كان لبقًا في مواجهة أمر يثير الدم في العروق، لكنه كتمه محافظة على الظواهر[1]، ما يعني أن هناك دورًا لشخصية باطنية لديه تبرز بعد حين.
2. قال ابن كثير: كان زوجها لين العريكة، سهلاً أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عليه[2].
3. ورد في تفسير عبد السلام السليمي الدمشقي أن العزيز كان لا يأتي النساء[3]
4. ورد في تفسير البحر المحيط أن العزيز صبر عليها لأنها كانت ذات سطوة[4]

---

(1) الظلال، سيد، قطب، دار الطباعة المنيرية، ط1982/2، 231/1.
(2) مختصر تفسير ابن كثير، 2/ 247، مرجع سابق.
(3) تفسير عبد السلام السليمي الدمشقي 115/20، مرجع سابق.
(4) البحر المحيط 5/ 310، مرجع سابق.

وما إلى ذلك من تفسيرات صحت أم لم تصح، فإن العزيز ستبرز له شخصية أخرى عبر عن مثلها الروائيون المحدثون بالشخصية الباطنية وهي التي لا تنسجم مع سلوك ما منها في حدث ما من أحداث الرواية[1] أو التي لا يكشف عن مرادها في حدث أو سلوك ما في الرواية، وربما عبر عن ذلك بـ"تناقض الشخصيات"[2]، ولتوضيح مفهوم تناقض شخصية العزيز في حادثة امرأته بالمفهوم الحديث للرواية، يمكن أن نرد ذلك إلى صدق المحتوى الروائي في قصة يوسف، لأنها أبرزت حدثًا مطبوعًا نزل من اللوح المحفوظ، ولا مقارنة لهذا الحدث مع الأحداث التي تجعل الشخصية متناقضة تارة، ومنسجمة تارة أخرى مع الحدث بحسب توجيه الراوي.

وأما امرأة العزيز فقد أدارت ظهرها للحدث، واستمرت في غيها وإغوائها فكان سلوكها منسجمًا مع إرادتها لأنها ستنقل يوسف إلى محنة أخرى ومتناقضًا مع العزيز، لأنها ظهرت أمامه بموقف العفيف، وفي داخلها كانت تبطن ليوسف محاولة أشد سمية من الأولى (**وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**)[الآية:32] في ظل هذه التجاذبات تتبوَّأ شخصية يوسف مراكز كثيرة في فن القصة، ففي الإسلام أبرز أوصافه ما ورد في قصته من تعبيرات قرآنية من مثل (" **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** "، "**إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** " " **مِنَ الْمُحْسِنِينَ** " **الصِّدِّيقُ**) وغير ذلك، فالذي يتبوَّأ هذه المكانة لا يمكن أن يكون مكانه في الرواية غير مكان الشرف والصدارة، سواءٌ أكانت الرواية إسلامية أم غير إسلامية، حديثة كانت أم قديمة، فكل الأحداث تدور حوله، ولا يشترط في الشخصية المركزية أن تدير الأحداث بنفسها، فقد تدير الأحداث بنفسها أو يديرها غيرها، مهما يكن، فإن الأوصاف التي تناظر شخصية يوسف في الرواية الحديثة ذات مصطلحات كثيرة من مثل:

---

(1) موير، أدوين، نظرية بناء الرواية، ترجمة د. محسن جاسم الموسري، مكتبة التحرير، بغداد، ط2، 1986، ص42.

(2) المرجع السابق، ص42.

شخصيات ذات حضور متميز، شخصيات رئيسة، شخصيات أساسية، شخصيات محورية، شخصيات مركزية، شخصية البطل[1].

أما الآيات موضوع هذا الباب من القصة فتكشف أحداثًا أخرى من مغامرات الأبطال تزداد فيها الأمور تعقيدًا مع كل من العزيز وامرأته ويوسف، فقد تسرب الخبر إلى نسوة المدينة مرورًا بنساء القصر وهن "امرأة ساقي العزيز، وامرأة الحاجب، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وتحدث به الجميع"[2]، ولا يبدو أن العزيز كان على علم بشيئين استجدًا بعد الحادثة الأولى وهما:

1. تفشي الخبر بين الناس
2. المحاولة الثانية التي قامت بها امرأته في إغواء يوسف

فمجمل الآيات من 30- 34 تحدثت عن تبني النساء الخمس المذكورات الخبر وأخرجنه بصيغة تشنيع، أكثر من أن يقال فلانة، فقلن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه بغية إلصاق الرذيلة بالعزيز نفسه لأنه سيدها، ولدى سماع امرأة العزيز بأن نساء القصر، ونساء المدينة يتحدثن بالخبر دعت مجموعة منهن مع نساء القصر الخمس في ما بلغ مجموعه أربعين امرأة إلى حفل وقدمت لهن الفاكهة، وفي غفلة من النساء وهن منشغلات بتقشير الفاكهة طلبت من يوسف أن يخرج عليهن، فلما خرج فقدن صوابهن من جماله وقطعن أيديهن (تجريح الأصابع)، فلما رأت منهن ذلك قالت قول المنتصر، "فذلكنَّ الذي لمتنني فيه"، وفي لفظ "فذلكنَّ" ما يستوجب التوقف عليه من وجوه أهمها:

1. الأصل أن يشار إلى يوسف بـ"ذا" لأنه قريب منهن

(1) راغب، د. نبيل، فن الرواية عند يوسف السباعي، مكتبة الخانجي، مصر، ب- ت ص 85، وريكاردو جان، قضايا الرواية الحديثة، ترجمة صباح الجهيم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1970، ص221.

(2) الظلال 2/ 231، والبحر المحيط 5/ 301.

2. أشارت إلى القريب بـ"ذاك" لبعد تحقق مرادها فاستخدم اللفظ الدال على البعد وهو إضافة الكاف إلى ذا في ذاك ليكون بعد المشار إليه مساويًا لبعد تحقق المراد منه.
3. ثم اجتلبت اللام مع ذاك في ذلك ليكون المراد أبعد، استنادًا إلى تجربتها الأولى التي فشلت فيها.
4. ثم اجتلبت نون النسوه بصورة نون التوكيد الثقيلة لتفيد أمرين هما:

أ- نسبة الافتتان بيوسف إلى جمع النساء أي أنه فتنكنَّ كما فتنني

ب- إخراج نون النسوة بلفظ نون التوكيد الثقيلة للتأكيد على إلصاق الفتنة بجمع النساء.

وعندئذٍ ينحرف مسار القصة مرة أخرى إلى مزيد من الغرائب، فلو كانت الأمور تسير في نصابها لأشفقت النساء على حال يوسف، لأنه مسترق، وغريب وطن، ومظلوم، وأمام إغواء وإغراء لا طاقة لبشر بحمله، فبدلاً من أن يشفق الجمع الكريم على حال يوسف أصبحت النساء ما بين من تدعوه إلى نفسها، أو تحثه على الاستجابة لطلب امرأة العزيز، فانتشت امرأة العزيز وقالت: (**وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**) [الآية:32] وأمام هذه التجاذبات وجد يوسف نفسه أمام أمرين أحلاهما مر فإما أن يستجيب لطلب هذا الحشد، وإما أن يسجن، فطلب من ربه السجن، لأن امرأة العزيز جعلته أمام هذين الخيارين فاستجاب الله لطلبه وأدخل السجن، والسجن أخف المحنتين، وفي ذلك يقول السلف: لقد كانت محنة يوسف شديدة مع امرأة العزيز، [ويقصدون سلوكها في المحاولتين] لما يلي[1]:

1. ما ركبه الله في الرجل من ميل إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الشراب
2. إن يوسف عليه السلام كان شابًا، وشهوة الشباب أقوى

---

(1) ابن قيم الجوزية، بدائع التفسير، جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثة يسرى السيد محمد، دار الجوزي، ط1، 1414هـ 1993م، 2/ 449، ص450.

3. إنه كان عزبًا
4. إنه كان غريبًا ويتأتى للغريب من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه
5. إن المرأة كانت ذات منصب وجمال
6. إنها غير ممتنعة ولا آبية فلم يثنها ذل السؤال
7. إنها طلبت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤونة الطلب
8. إنه [يوسف] في دارها وتحت سلطانها بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له
9. إنه لا يخشى أن تنم عليه لأنها هي الطالبة
10. إنه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج، ويحضر معها فلا ينكر عليه
11. إنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال
12. إنها توعدته بالسجن والصغار
13. إن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلاً منهما عن صاحبه، فغاية ما حصل "أعرض عن هذا" "واستغفري لذنبك"

وأما النظرة الروائية الحديثة فأقرب ما تكون إلى وصف سلوك العزيز وامرأته بالسلوك القدري، وهو السلوك الذي تكون فيه الشخوص عاجزة عن التصدي للأحداث[1]، فقد أشرنا إلى ما كان من العزيز من إعراض عن التصدي للحدث ولو في الظاهر، وأما امرأته فهي حقيقة عجزت عن التصدي للأحداث لغلبة هواها عليها، فكان هواها يتدهدى بها، والقدر المراد بتعبير المحدثين هو سيطرة الهوى، وليس هو قدر الله بالمفهوم الديني، وإن كان كل ذلك بأمر الله، وكي تكون هناك استجابة منطقية في الأحداث، وهو أقرب إلى تعبيرات البنيويين فإن المحاولة الثانية لامرأة العزيز، كانت بسبب فشل الأولى، وإن استدعاءها لصويحباتها كان بغية التخفيف من وطء الإشاعة كي تتابع مشوارها في تحقيق الهدف، وإن العزيز قد شغله التفكير في وجود مخرج من المشكلة

(1) الراوي، مصطفى ساجد، بناء الشخصية في الرواية، ص92، مرجع سابق.

عن متابعة ما يجري في المحاولة الثانية، فاستدعت امرأته صويحباتها وفُتنّ بيوسف كما فتنت، ودعونه كما دعت، وأغوينه كما أغوت، كل ذلك في غياب عن ناظري العزيز وذلك ما يعرف بتتابع الأحداث في الرواية[1]، وفجأة يصحو العزيز ليجد نفسه أمام أمر واقع، لا بد فيه من كلمة تقال، فسكوته في المرة الأولى لم يحل المشكلة لا بل قاد إلى مشكلة أكثر تعقيدًا، وفي الآيات التالية يكشف النقاب عن جوانب أخرى في شخصية العزيز، ويبدأ خطوات عملية في حل المشكلة.

ح. الآيات من 35 – 42

(ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ {35/12} وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {36/12} قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللـهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {37/12} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللـهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللـهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ {38/12} يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللـهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {39/12} مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللـهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلـهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ {40/12} يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ {41/12} وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ {42/12}) تظهر هذه الآيات خروج الأمر عن سيطرة العزيز بانتشار رذيلة امرأته بين الناس مع تأكده من براءة يوسف، فهل

(1) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، 1/ 120.

يأخذ بظواهر الأمور ويعاقب يوسف على ذنب هو منه بريء؟ وفي ذلك ما يؤجج المشاعر وربما تكون امرأة العزيز نفسها أحرص الناس على تجنب إيقاع عقوبة قاسية بيوسـف، أم يـترك الأمـر ينتشر من حواليه انتشار النار في الهشيم؟ فالنص العقلي المقدر في الآيات أن العزيز قد اجتمـع مع المقربين منه وكاشفهم بالأمر، فصدقهم القول كي يصدقوه النصيحة، فتوصل الجميع إلى حل توافقي يقوم على:

1. معاقبة يوسف عقابًا شكليًا بالسجن، وهو ما أشارت عليه به امرأته
2. إشهار الأمر بين الناس بطريقة تقلب فيها الحقيقة، بحيث طُوِّف بيوسف في المدينة على ظهر حمار وضرب حوله بالطبول لاستشعار السخرية والمهانـة قـال ابـن عبـاس: فـأمر بـه فحمل على حمار، وضرب بالطبل، ونـودي عليـه في أسـواق مصر، أن يوسـف العـبراني أراد سيدته فجزاؤه أن يسجن[1]، وذكـر صـاحب البحـر المحـيط أن ابـن عبـاس، مـا ذكـر هـذا الحديث إلا بكى[2]، وهذه المحنة الخامسة والأخيرة في حياة يوسف.

ودخل مع يوسف السجن اثنان من عمال الـقصر وهـما الخبـاز، وسـاقي الخمـر لأنهـما تآمرا على الملك وحاولا أن يدساله السم[3]، واستأنسا بيوسـف وألفـاه، ويبـدو أنهـما قصـا عليـه جوانب معاناتهما، وشكا إليه مظلمةً من العزيز، وبصفته نبيًا في هذه المرحلة كـان قـد اسـتثمر هذا الاستئناس في الدعوة إلى اللـه[4].

ويـدرك بالعقـل وجـود فاصـل زمنـي مـا بـين دخـول الثلاثـة السـجن "يوسـف وسـاقي الملك والخباز" واجـتماع الأخـيرين بيوسـف طـالبين منـه تفسـير رؤيـاهما، لأن لفـظ "إنـا نـراك مـن المحسـنين", ينبنـي عليـه أمـران هـما: المعرفـة المسـبقة بيوسـف، والتزكيـة، فالحاصـل أن

(1) تفسير الكشاف 467/2.
(2) البحر المحيط 5/ 307.
(3) الدمشقي، تفسير القرآن العظيم 2/ 477.
(4) تفسير البيضاوي، 1/ 264.

الساقي رأى في المنام أنه يعصر الخمر، وعصر الخمر وسقياه الملك هو عمله في القصر قبل أن يسجن، ورأى الخباز أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه،وحتى يستأنس الاثنان إلى تفسير رؤياهما، كان يوسف حريصًا على إظهار القدرة، مع تقديم الضمان في التأويل، (**قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا**) لأن الرواية حصلت في زمن كثرت فيه الكهنة، ولا يفلح الكاهن لأن معرفة الغيب خصوصية إلهية.

فإظهار قدرة يوسف على التأويل قد ربطه بنبوته كي يصرف تفكير الساقي والخباز عن تفسير من مثل تفسير الكهنة فقال: (**ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللـهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {37/12}**)الآية:[37] ثم ذكر المقابل أنه اتبع ملة آبائه، إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهم سلالة أنبياء، وكان يوسف قبل إجابة الساقي قد قدم ما يدعم تفسيره بما يلي:

1. إظهار القدرة على التفسير
2. إشارة خفية ذكية إلى تأويلات الكهنة والمنجمين وزيفها
3. إظهار أنه نبي ومن سلالة أنبياء
4. إظهار أنه لا يأتي بالمغيبات إلا بالقدر الذي يوقفه اللـه عنده
5. إظهار علمه بأقوام يشركون باللـه، ومنهم أقوام سلفه من الأنبياء، وقوم الساقي والخباز
6. الاسترسال في الإجابة لأنه استثمر السؤال في الدعوة إلى اللـه، وفي ذلك تهيئة السائل لقبول الإجابة
7. أدرك ثقة السائل به، فكان الجواب يظهر المجيب بمستوى ثقة السائل
8. أضاف إلى السائل أمرًا لا يعلمه، وهو أن المسؤول نبي واللافت للانتباه في الآيات أن يوسف عليه السلام قد بُلِّغ بالنبوة في سني، السجن، وأن تطمينه وهو في رحلة الصيد مع أخوته كان مؤشرًا على ما سيكون(**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ**

لاَ يَشْعُرُونَ) [الآية: 15] وكذلك (**وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللـهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**)[الآية: 21] وقولة تعالى: (**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)[الآية: 22] كل هذا التدرج كان في مراحل يمكن أن نطلق عليها مراحل الإعداد للنبوة، وأما قوله تعالى: (**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**) [الآية: 24] فاللـه أعلم أنه كان قد بلغ بالنبوة وما أن نصل إلى قوله تعالى: (**ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللـهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**)[الآية: 37] حتى نكون مع نبي يتحدث بلسان النبوة، ويصف نفسه بأوصافها، وبعد أن وصل بالسائل إلى مستوى التصديق التام والتسليم بالإجابة بدأ يوسف بالأهم، وهو الإشارة إلى ما يعبده قوم الساقي والخباز من دون اللـه، من آلهة من صنعهم، تفتقر إلى أدنى مقومات الإلوهية الحقة، وتنقص عابديها الحكمة والإدراك، ثم يجيب على سؤال الساقي، بأنه سيطلق سراحه ويعود إلى ما كان عليه عند الملك من سقيه الخمرة، وأما الخباز فسيصلب وتأكل الطير من رأسه، ولدى سماع الخباز بهذا التفسير، يبدو كأنه غير الإفادة، فأجابه يوسف بـ (**قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**) أي أنني فسَّرت هذا النص بهذا التأويل، وأنت أعلم بما رأيت في منامك وفي لهفة من يوسف عليه السلام، يقول للساقي: أذكرني عند ربك أي أخبر الملك بقصتي، لكن الساقي عندما أطلق سراحه من السجن نسي أن يبلغ الملك بأمر يوسف، لأمر أراده اللـه، فلبث يوسف في السجن سبع سنين، وفي قول يوسف عليه السلام للساقي أذكرني عند ربك طرافة، فقد روي أن جبريل عليه السلام جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتبًا له، فقال له: يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوتك؟ قال: اللـه تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: اللـه تعالى، إلى أن وصل معه إلى

أمر الساقي وطلب يوسف منه أن يذكره عند الملك فقال له جبريل: تركت ربك ولم تسأله ووثقت بمخلوق؟ ثم قال: عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين[1].

ومما يدرك بالعقل أن السنين التي قضاها يوسف في السجن كانت بالنسبة للعزيز خيارًا مرًا، دفعه إليه درء الشبهة، والظهور أمام الناس ولا سيما المقربين بمظهر يليق بالملوك في مثل هذه الأحداث، وهو ما عبر عنه السلف من المفسرين بقولهم "الحفاظ على الظواهر"[2]، ويقصد بالظواهر أن يكون سلوك الشخص منسجمًا مع الأعراف المجتمعية ولو عبر عن مرحلة السجن في حياة يوسف بتعبيرات الرواية الحديثة، أو الروايات التقليدية عامة لقيل فيها، حبكة الرواية، أو نقطة التأزم، وهذا لا يصدق على شخصية يوسف للآتي:

1. في الروايات التقليدية هناك أيادٍ وفكر تدير الأحداث، تصل بالشخوص إلى مرتفعات ومنخفضات مقصودة، بينما وصول يوسف إلى مرتفعات ومنخفضات كان مطبوعًا لأنها مرتفعات ومنخفضات أرادها الله.
2. لقد بدأت القصة بمرتفع وهو الحلم، وفيه بداية الإعداد للنبوة، ومرت القصة بأربعة منخفضات فيها محنة الأنبياء، وهذه المنخفضات هي:

أ- الإلقاء في البئر

ب- الاسترقاق في قصر العزيز

ج- محاولات امرأة العزيز وصويحباتها في إغوائه

د- السجن

ثم انتهت القصة بمرتفعات هي براءته وخروجه من السجن وتبوؤه مكانته المرموقة في مصر وتحقق الرؤيا بالنبوة، وكل مرتفع من هذه المرتفعات يصدق عليه حد "حبكة" لأنه نتيجة لتراكم أحداث مسبقة وتتابعها حتى وصلت هذا الحد بحسب وصف الروايات

(1) تفسير القرطبي 9/ 196.

(2) تفسير الظلال 2/ 231.

التقليدية[1]، وكذلك تطلق الروايات التقليدية تعبير "ملهاة البطل"، في مثل هـذا الارتفـاع، وهـو تعبير لا يصدق على قصة يوسف لأن يوسف فوق أن يوصف بذلك فهو قـد مـرَّ بمرحلـة إعـداد نبوة، ومرحلة نبوة حقه وهو في السجن، فكـان يتبـوأ في ارتفاعاتـه وانخفاضـاته أمكنـة وأزمنـة أرادها اللـه، وهي فوق حبكات وأزمات الروائيين.

3. يصعب علينا في الرواية الحديثة أن نحدد أيًا من المنخفضات أو المرتفعات التي مـر بهـا يوسف، ونضعها حبكة قصة، أو نقطة تأزم لأنها كلها حبكات ونقاط تأزم، وخـير وصـف يصدق على المنخفضات التي مر بها يوسـف أن يقـال "بـؤر متنقلـة"[2]، ويقصـد بهـا أن يكون هناك حدث يتمركز وسط عدد من مكونـات الـنص، ثـم يـأتي حـدث آخـر وسـط مكونات أخرى في مكان آخر من النص، وهكذا، ومثـل ذلـك في القـرآن كثـير، وهـو أمـر تعجز عنه الرواية الحديثة مهما كانت درجة البراعة والاتقان عند الروائي، حتى لو كانت الرواية مطبوعة.

وأما المرتفعات فيصدق عليهـا كـذلك أن توسـم بــ"بـؤر متنقلـة" وقـد جـاءت متتابعـة ومتزامنة لأنها تكشف عن النتائج النهائية للقصة وبحسب وصف الروائيين المحدثين فإن تسارع الأحداث في الرواية يسمى تتابعًا[3]، وشهدت مرحلتا الاسترقاق والسجن مثل ذلك.

4. في الروايات التقليدية يكون هم الـروائي توجيـه الأحـداث باتجـاه مـا يعـرف بــ"حبكـة القصة"، ليصنع المشكلة، ثم الحل تحقيقًا لأهداف مختلفـة وغالبًـا مـا تكـون في روايتـه "حبكة واحدة" لأن همه أن تصل رسالته إلى القارئ كما يريـد، فحرصـه عـلى القـارئ لا يقل عن حرصه على جودته الفنية في عمله.

---

(1) مصطلح منخفضات ومرتفعات في القصة خاصان بالكاتب.

(2) المصطلح خاص بالكاتب.

(3) الراوي، مصطفى ساجد، بناء الشخصية في الرواية، ص92.

ومهما يكن من شيء فإن مرحلة السجن عند يوسف ستطوي صفحة الماضي، وتنقله إلى المكان الذي يليق به، وتجعله يتبوّأ دوره الذي ارتضاه له اللـه، وأقرب الأوصاف الروائية الحديثة التي تنسجم مع شخصية يوسف، وهو يرتفع وينخفض في الأحداث هو وصف "الشخصية الكثيفة"[1].

ط. الآيات من 43- 52

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ {43/12} قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ {44/12} وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ {45/12} يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {46/12} قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ {47/12} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ {48/12} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ {49/12} وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ {50/12} قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلـهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {51/12} ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللـهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ {52/12})

ذكرنا في الآيات السابقة أن العزيز لم يكن مقتنعًا بسجن يوسف، أو بتطويفه على حمار في المدينة من أجل التشهير به، لكن ذلك قام به كما يقول المفسرون حفاظًا على

(1) كتابنا هذا ص44.

الظواهر[1]، أي بما يتراءى للناس أنه قام بما يلزم من إجراء في مثل هذه الأمور، وبات وفي نفسه قلق في أمرين:

أ. كيف يحفظ ماء وجهه لأن أمر زوجته قد افتضح

ب. كيف يخلص يوسف من السجن لقناعته ببراءته منذ محاولة امرأته في المرة الأولى ويوسف في حجره

وظرف كهذا من الطبع أن يكون مقلقًا، والقلق من الناحية النفسية مدعاة إلى الأحلام المفزعة، وهو ما تم بالفعل مقترنًا كل ذلك بإرادة اللـه في أن يفرج عن يوسف ويخرج من السجن، في ظل هذا الجو من الترقب والقلق رأى الملك رؤيا عجيبة أفزعته ذلك أنه رأى سبع بقراتٍ سمان خرجت من نهر يابس، وفي أثرهن سبع بقرات هزيلة غاية الهزل، فابتعلت العجافُ السمانَ، وكذلك رأى في الرؤيا نفسها سبع سنبلات خضر، وسبعًا يابسات تلتف اليابسات على الخضر كأنهن يأكلنهن، فقام الملك فزعًا ثم استدعى السحرة والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويل الرؤيا، فأعجزهم اللـه جميعًا ليكون ذلك سببًا في خلاص يوسف من السجن، وقالوا "أضغاث أحلام" أي أمور مختلطة يصعب تأويلها كاختلاط الحشيش اليابس بالأخضر، وقيل إنهم قالوا: لسنا نعرف تفسير مثل هذه الأحلام الكاذبة: وثمة لطيفة في استخدام نون النسوة مع البقرات في "يأكلهنَّ" فالقياس أن يقال: يأكلها، أو تأكلها فاستوى في هذه الصيغة العاقل مع غيره، ثم جرى تغليب العاقل في نون النسوة، لأن نون النسوة مما يتوسع به إلى غير العاقل لأسباب بلاغية، وفي هذه الأثناء يبرز الساقي منتشيًا بعد أن رأى عجز أهل التأويل عن تأويل رؤيا الملك، ويطلب من الملك أن يرسله ليأتيه بتأويل رؤياه، ولم يصرح الساقي بأنه يريد التوجه إلى يوسف، كي لا يقع في حرج محتمل، لأنه عندما رأى عجز من هم أهل لتأويل الرؤى المنامية خشي مع ثقته بيوسف أن يخذله[2].

---

(1) الظلال 2/ 231.

(2) تفسير الرازي، 18/ 149.

ولكنه توجه إلى يوسف وفي نفسه اعتبارات تفسير يوسف لرؤياه نفسه في "(**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا**) وفيها تحقق للساقي الخروج من السجن والعودة إلى سابق عهده عند الملك، مهما يكن فقد توجه الساقي إلى يوسف، ويفهم عقلاً من لفظ "أرسلون" أن سجن يوسف كان في مكان آخر غير المكان الذي جرى فيه هذا الحوار، وهو ما ذهب إليه ابن عباس[1].

ولما وصل الساقي قصّ على يوسف رؤيا الملك وأجابه يوسف مسرعًا بالقول: تزرعون سبع سنين دائبين بجد وعزيمة، ثم اتركوا الزرع في سنابله حفاظًا عليه من التسوس، إلا بالقدر الذي تحتاجونه للأكل، لأنه يأتي بعد سنيّ الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط، تأكلون ما ادخرتم أيام الرخاء، إلا قدرًا تخصصونه للزراعة (**إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ)** ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون الأعناب والفاكهة لكثرة خصبة وهو العام الثامن.

وقد فسر الرازي مقدرة يوسف على هذا التفسير بأنها من الوحي[2]ولعل الساقي كان منتشيًا أكثر من الملك بهذا التفسير لأنه سيحفظ ماء وجهه أمام الملك ولدى سماع الملك هذا التفسير زال عنه كابوس الحلم وانتشى لذلك، ولأن التفسير جاء من شخص لم يكن مقتنعًا أصلاً بسجنه فسارع بالقول "ائتوني به" وفي ذلك قفزة كبيرة في عالم أحكام القضاء والعفو فالأولى في البروتوكولات المرعية في هذا الشأن أن يقول الملك مثلاً: سارعوا في إجراءات العفو، أو أن يطلب الملف، أو أن يصدر أمرًا، لكن نشوته بزوال كابوس الحلم جعلته يتخطى كل بروتوكولات القصر ويطلب من الساقي إحضاره ليستمع بنفسه إلى تفسيره، لكن يوسف رفض الخروج من السجن ما لم يعلم الملك حقيقة الأمر، وما كان من افتراء امرأة العزيز عليه، وكيف كادت له المكائد وآخرها الوليمة التي

(1) تفسير الطبري، 12/ 229.

(2) الكشاف، 2/ 477.

أعدتها لصاحباتها، وفيها يتأزرن معها ويطلبن طلبًا موحدًا من يوسف بارتكاب الفاحشة، وهي الحادثة التي اشتهرت بتقطيع النسوة أيديهن، فيوسف يريد أن يكون خروجه مشرفًا مكشوفةً فيه الحقائق، ظاهرة براءته، ويبدو أن الملك لم يكن عالمًا بالمكيدة الثانية وهي التي دخل فيها يوسف السجن، وعند عودة الساقي إلى الملك حاملاً شروط يوسف بالخروج من السجن نترك المجال للشهيد سيد قطب رحمه الله لننقل بتفسيره وقائع اجتماع الملك بالنسوة اللائي قطعن أيديهن، لأن براءة يوسف عليه السلام ستعلن في هذا الاجتماع، وبعدها سنكمل القصة بجوانب أخرى لأبطالها مختلفة تمامًا عنهم بعد اجتماع الملك.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: "رجع الرسول [يقصد الساقي] فأخبر الملك [يقصد أخبره بقصة النسوة التي دعتهن امرأته إلى الوليمة التي قطعن فيها أيديهن] وأحضر الملك النسوة يستجوبهن والخطب [الأمر الجلل] فكأنما الملك استقصى فعلم أمرهن، فهو يواجههنّ مقررًا الاتهام ومشيرًا إلى أمر لهن جلل، وشأن لهن خطير "ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه" ومن هذا نعلم شيئًا مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز، وما قالته النسوة ليوسف وما أشرن إليه من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة، ومن هنا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ، فالجاهلية دائمًا هي الجاهلية، إنه حيثما كان الترف وكانت القصور والحاشية كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الارستقراطية"[1] واكتفى سيد قطب رحمه الله بالإشارة إلى وقائع الاجتماع بالوصف لا بالتشخيص وأبرز ما تم في الاجتماع مايلي:

1. اعتراف امرأة العزيز
2. اعتراف صويحباتها
3. تزكية يوسف بالإجماع

---

(1) ظلال القرآن، 2/ 248.

4. الاستجابة ضمنًا لشروط يوسف بالخروج من السجن لأن الاجتماع انعقد بناءً على طلبه
5. قرار بخروج يوسف من السجن

في تفسير سيد قطب لوقائع خروج يوسف من السجن تركيز على وضوح الصورة لدى العزيز، وتكشف الأمور لديه، ومن المفسرين من لفت الانتباه إلى هيئة الخروج من السجن وأبرز فيها ما يليق بيوسف بصفته: رسولاً، بريئًا، وما يليق بالملك بصفته، ملكًا كريمًا، قال النسقي: "دخل الساقي على يوسف ومعه سبعون حاجبًا، وسبعون مركبًا، وبعث إليه لباس الملوك، فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهل السجن، ثم وصل الملك وكلم الملك بالعبرانية، وكان الملك يتكلم بسبعين لغة كلمه بها جميعًا فأجابه يوسف"[1]، وهذا من أسباب إعجاب الملك به فوق ما ذكر.

وفي لفته كريمة من يوسف (**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللــهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**) [الآية: 52] قصد بها أنه لا يريد أن يحرج الملك أو حتى امرأته، هو يسعى إلى براءة مشرفة لا تلبس ثوب العفو، أي أنه خرج من السجن بحق وأدخل بباطل.

وفي الآية درء ما يذهب إلى الاعتقاد بأن الضمير في "أخنه" يعود إلى امرأة العزيز، فلا يستوي ذلك لأن ما قامت به خيانة صريحة، وإن لم تتحقق الفاحشة، فأدعى أن يعود الضمير إلى يوسف عليه السلام، لأنه بحق لم يخن سيده العزيز، وهناك نتائج عقلية من وقائع الاجتماع تكشفها القصة لاحقًا.

ي. الآيات من 53- 57

(وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ {53/12} وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ {54/12} قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ

(1) تفسير النسقي، 2/ 376، مرجع سابق.

الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ {55/12} وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {56/12} وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ {57/12}) في قوله تعالى:(**وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**)[الآية: 53] على لسان يوسف عليه السلام ما يبدو في ظاهره أن يوسف قال ذلك في الجسلة التحقيقية التي شكلها الملك, ولكن هذه العبارة عبارة المتواضع لله، فهو ينسب الفضل إلى الله في كل النجاحات التي حققها، وفي ذلك كبح لجموح النفس واعتلائها.

ويستدل عقلاً على أن يوسف قد صار متيقنًا من كل النتائج التي خلص إليها الملك المحقق بدليل استجابة الملك لطلبه في تقصي أمر امرأته وصويحباتها، فالحاصل أنه في هذه الآيات يتأكد الملك من براءة يوسف، لأن جلسته التحقيقية قد خلصت إلى هذه النتيجة، فيقول لحاشيته ائتوني به استخلصه لنفسي، أي أجعله من خاصتي ومن المقربين، ويفهم من قوله تعالى: (**إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ**)[الآية: 54] أي سل يا يوسف تُعط فيطلب يوسف عليه السلام منصبًا يشبه وزارة المالية في هذه الأيام، ويفهم عقلاً أن يوسف دخل على الملك بعد أن فض الاجتماع وخلص إلى النتائج التي ذكرناها، وطلب منه هذا المنصب وأن الملك قبل عرض يوسف لسببين هما:

1. كانت كل نتائج هيئة التحقيق تصب في صالح يوسف
2. عندما كلم العزيز يوسف بالأمر سُر بحكمته ورجاحة عقله وتمام شخصيته

وقال بعضهم بل سر الملك أنه كلم يوسف بسبعين لغة ما غابت عن يوسف منها لغة[1]، وأما يوسف فقد طلب هذا المنصب للأسباب التالية:

أ. هو نبي والنبي داعية وتنوقل خبر عفته ونزاهته بين الناس

ب. إن البلاد غنية تحتاج إلى من يدير هذا المنصب

---

(1) تفسير النسقي 22/ 376، مرجع سابق.

ج. أراد أن يثبت للملك قدرته على إدارة شؤون البلاد

ولم يرد هنا تزكية نفسه بمقدار ما أراد الاستشعار بحنكته ودرايته في هذا المنصب.

وبعد الآيات (**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ {50/12} قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {51/12} ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ {52/12}**) تختفي من القصة شخصية كل من: الملك، وزوجته، وصويحباتها، والساقي بانتهاء الأعمال الأدبية المسندة إليهم على النحو الآتي:

1. أما الملك فقد أظهرت هيئته التحقيقية كل الحقائق التي حجبت عنه في القصر أو الحقائق التي لم يعد بوسعه أن يخفيها
2. وأما زوجته فهي شخصية مكملة لشخصيته فاختفت باختفائه
3. وأما الساقي فهو شخصية سطحية تظهر فجأة وتختفي فجأة وكان آخر ظهور له عندما أرسله الملك في موكب لإخراج يوسف من السجن
4. وأما صويحبات امرأة العزيز، فهن مكملات لها، فقد اختفين باختفائها، ويمكننا أن نطلق على مجموعة الأحداث التي انتهت بانتهاء هيئة التحقيق لفظ "أحداث القصر" وتصلح لأن تكون المشهد الأول إذا أردت أن تعبر بتعبير الرواية الحديثة، وكل ما قبلها ليس إلا أحداثًا، أو مكونات تخلو من بؤر نصية، ما خلا الأحداث المتعلقة بيوسف عليه السلام، فكلها بؤر نصية متنقلة، والقرآن الكريم خير معين للبؤر النصية المتنقلة، ومما يذكر أن البؤر النصية المتنقلة أمرٌ يعجز كتاب الرواية، لأن البؤرة النصية المتنقلة تنتقل من مكان إلى أخر بمجموعة من الأحداث، فبالنسبة لبؤر يوسف هي جزء مجتزأ من أحداث أربعين سنة، يصعب أو يتعذر على الروائي الحديث أن يكون بؤر نصية متنقلة لها بالمعنى الروائي في عشر صفحات

وهي تعداد صفحات سورة يوسف، وأما يوسف عليه السلام فقد ظل يتبَّوأُ مكانه بطلاً، كما تبَّوأ مكانه في مصر، وإن هيئة التحقيق لم تنهِ دوره، لا بل جعلته يتبَّوأ مكانته، وإن هيئة التحقيق قد أسدلت الستار على مشهد متكامل من الأحداث أبرزت فيه الأسباب والملابسات والنتائج، ثم تنتقل القصة لاستحضار أحداث أخرى على نحو من:

ق. الآيات من 58- 62

(وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ {58/12} وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ {59/12} فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ {60/12} قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ {61/12} وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {62/12}) تظهر الآيات شكلاً غريبًا في الربط من حيث إنها تتحدث عن شيء ليس له صلة مباشرة بما قبله، فمن حيث النسيج اللغوي الكامل للقصة، فإن هذه الآيات تضمنت إحالة نصية داخلية، لأن إخوة يوسف مكوِّن من مكوِّنات القصة، أما إذا ما عُدَّت الهيئة التحقيقية التي شكلها الملك بؤرة تشكل بها حدث بأركانه فإن هذه الآيات تتضمن إحالة خارجية، غير أن المتتبع لأحاث القصة يجد أنها تسير في محاور واتجاهات مختلفة، فيبدو عند التفات القصة إلى حدث متقدم عدم ارتباط بين الحدثين، فالحاصل في هذه الآيات، بعد تقدير النص العقلي "المحذوف" أن يعقوب عليه السلام قد أرسل بنيه للبحث عن طعام بسبب قحط عم البلاد[1]ودخلوا على يوسف بعد اثنتين وعشرين سنه من إلقائه في الجب، فعرفهم ولم يعرفوه[2] وخاطبهم كالمنكر لهم قائلاً ما سبب قدومكم إلى أرضنا؟ قالوا: جئنا للميرة، قال لعلكم عيون "جواسيس" قالوا: معاذ الله ثم استدرجهم حتى قصوا عليه ما كان من أمره معهم،

---

(1) حاشية الصاوي، 2/ 249.

(2) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

خلا أنهم قالوا: هلك في البرية، ولم يقولوا: ألقيناه في البئر، وحدثوه عن أبيهم وحزنه على ولده "يقصدون يوسف" وعن شقيقه بنيامين الذي ظل عند أبيه ليتسلى به، ثم أكرمهم وأحسن ضيافتهم، وفي الصباح جهزهم بجهازهم وطلب منهم إحضار "بنيامين" وهو شقيقه **(قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ)** [الآية: 59] بعد أن أوفى الكيل، لأن ذلك أدعى لأن يطمئنوا ويحضروه، وقالوا: سنراود أباه، وبغية إحضاره قال لهم: إذا لم تأتوا به فلا كيل لكم عندي، ولا تقربوا أرضي، وذكر صاحب المحيط أن ما فعله بوحي من الله ولا سيما أنه عاد ليهدد بعد الكرم[1]، ثم أمر يوسف عليه السلام غلمانه بوضع بضاعتهم في رحالهم كي يضمن عودتهم، لأنهم إذا عرفوا البضاعة سيعودون، ولما وصلوا أرض كنعان أبلغوا يعقوب عليه السلام بما كان وهم لا يعلمون أن بضاعتهم التي جاؤا بها قد وضعت في رحالهم، ولكن الأمر العسير كيف يطلبون من أبيهم ذهاب بنيامين معهم إلى مصر؟ وهو شرط يوسف في تزويدهم بالمير، بل وشرطه في دخولهم مصر، يطلبون هذا الأمر وجرح يوسف لم يندمل بعد! وهل سيوافق يعقوب؟ وكيف السبيل إلى هذا الطلب؟ لنرى.

ل. الآيات من 63- 67

(فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {63/12} قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {64/12} وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ {65/12} قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ {66/12} وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ

---

(1) البحر المحيط 5/ 322.

إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِـلـهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْـهِ فَلْيَتَوَكَّـلِ الْمُتَوَكِّلُـونَ {67/12}) في هـذه الآيـات تبـدو المحنة الحقيقية للإخوة، لأنهم سيكونون أمام أمور أحلاها العلقم، لما يلي مع شـعورهم جميعًـا بذنبهم مع الـلـه ومع أبيهم في يوسف

1. إن وافق يعقوب عليه السلام عـلى ذهـاب بنيـامين معهـم، فسـيكونون قـد وضـعوه في مشكلة أخرى من الترقب والقلق، وهم مشـفقون عليـه حقًـا لمـا رأوا عـلى جسـمه مـن علامات النحول والكآبة.
2. إن لم يوافق يعقوب على ذهاب بنيامين فلن يحصلوا على المير من مصر، وهم يعيشـون سنيَّ القحط.
3. لو دخلوا مصر من غير بنيامين فلن يستطيعوا الاقتراب من يوسف لأنهم أخلـوا بـالشرط (**فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنـدِي وَلاَ تَقْرَبُـونِ {60/12}**)[يوسـف: 60] وسـيظلون خائفين مترقبين.
4. في دخولهم مصر من غير بنيامين ما يضطرهم إلى البحث عن مير من مصادر أخـرى، وفي هذا الأمر خطر ظاهري لأنهم سيكونون جواسيس في ظاهر الأمـر، ولا يعلمـون في مصر ميرًا عند غير يوسف.
5. في اصطحابهم بنيامين وهو شرط يوسف عليه السلام تظل في نفوسهم شـائبة، فلـو تخطـف القدر بنيامين لحدثتهم أنفسهم بأن يعقوب لن يصدق فالظرف الذي عاشـه إخـوة يوسـف وهم يتدارسون أمرهم في طلب ذهاب بنيامين، كيف نطلبه؟ وما السبيل؟ ومـاذا لـو وافـق أبوهم؟ وماذا لو لم يوافق؟ هو المعبر عنه في الرواية الحديثة بـ"اضطراب الشخصيات"[(1)].

فهم لن يعودوا إلى مصر مطمئنين ولو كان معهم بنيـامين، ولـن يكونـوا مطمئنـين بعـد الـذي حصـل ولـو ظلـوا عـاكفين، لكـنهم في النهايـة أقـدموا عـلى مـا لم يكـن منـه بـد فطلبـوا

(1) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، 149/1.

من أبيهم ذهاب بنيامين معهم إلى مصر، ورد يعقوب في بادئ الأمر بما هو متوقع مـن الجميـع **(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** [الآية: 64] ولما فتحوا أمتعتهم وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم، فكان ذلك أدعـى إلى تعزيز حجتهم، وأدعى إلى أن يطمئن إليهم يعقوب عليه السلام، كي يوافق عـلى ذهـاب بنيـامين وعندئذ**(وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)**[الآية: 65] فوافق يعقوب على ذهاب بنيامين معهم شريطة **(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ {66/12})** [الآية: 66] ولما صار يعقوب عليه السلام أمام هذا الأمر نصحهم بألا يدخلوا من باب واحد مخافة الحسد والعين، وقال بعض المفسرين نصحهم بذلك لجمالهم[1].

وبهذه الموافقة التي تبدو في شكلها غريبة تثار أسئلة من مثل:

1. لماذا وافق يعقوب عليه السلام على ذهاب ولده بنيامين وأدخل نفسه مرة ثانية في جو من القلق والترقب؟
2. ما دلالة الميثاق الذي أخذه على بنيه؟

(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ {66/12})[الآية: 66]

الجواب: إن يعقوب عليه السلام أبعد من أن يلدغ من جحر واحد مرتين، فحكمة الله هي التي أوقعته في شراكهم الأول، ووحيه هو الذي أوقعه عند رغبتهم في المرة الثانية، وذكاؤه وحنكته توصل بهما إلى نص الميثاق الذي جعلهم في هذه المرة يحرصون على

(1) تفسير الفخر الرازي، 119/18.

بنيامين أكثر من حرصهم على أنفسهم، وسنرى في الآيات اللاحقة كيف يتمنى كل واحد منهم أن يحجز مكان بنيامين في ما تكشف عنه الآيات التالية.

م. الآية 68

(وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ {68/12}) هذه الآية تقع في نهاية حدث، وبداية حدث، فقد أنهت جدل الإخوة مع أبيهم في ذهاب بنيامين، وبدأت بعدها مرحلة عودتهم إلى مصر، وجاءت الآية بعد نص يقدر عقلاً من مثل:

1. الجدل الكبير الذي دار بينهم وبين أبيهم، لأن الآيات السابقة تحدثت عن النتائج وليس عن التفاصيل، وبعد **(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)**[الآية: 66] أرسله معهم بالفعل.
2. الحوار الذي دار بينهم وبين أبيهم حول نص الميثاق
3. مدلول "لا تدخلوا من باب واحد" وهو مخافة الحسد لجمالهم[1]، لا يمكن أن يعقله إلا التأويل العقلي، ولم يفسره لهم يعقوب عليه السلام، بعد كل هذه الظروف جاء قوله تعالى:

ن. الآيات من 69- 76

(وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {69/12} فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ {70/12} قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ {71/12} قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ

(1) تفسير القرطبي، 163/9.

حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ {72/12} قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ {73/12} قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ {74/12} قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ {75/12} فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ {76/12})

وصل الإخوة إلى مصر للمرة الثانية، ودخلوا على يوسف ولا زالوا لا يعرفونه وأكرمهم، وفي المبيت جعل كل اثنين منهم في غرفة، وجعل أخاه بنيامين معه في غرفة لأنه أفرد في حساب كل اثنين في غرفة، وطمأنه ليلة المبيت أنه أخوه، وصبره على ما فعله إخوته، ثم أخبره أنه في الصباح سيجعل "صواع الملك" في رحله بما يوهم إخوته أنه سارق كي يحتجزه عنده، وبدأ بنيامين أقرب إلى قبول الرأي، وأبعد عن موافقة سلوك إخوته، وهو المستفاد من قوله تعالى (**فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**)[الآية: 69].

ومهما يكن ففي الصباح أمر يوسف أن تجهز رحال إخوته وأن يوضع مكيال الملك وهو صاع مرصع بالجواهر في رحل بنيامين، ثم ينادى أيها العير إنكم لسارقون قال المفسرون: إن يوسف ظل يستغفر ربه على هذا الاجتهاد لأنه لا يقصد أن يتهمهم بالسرقة، ففكر ولم يجد مسوِّغًا لبقاء بنيامين عنده سوى هذه الطريقة[1].

ولما نادى المنادي(**أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**)[الآية: 70] شعر إخوة يوسف بالحرج وردوا: ماذا تفقدون؟ فقال المنادون: نفقد صواع الملك ولمن يعترف به حمل بعير، وبدهشة وثقة بالنفس يجيب إخوة يوسف (**قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**) [الآية: 73] أي أنهم ليسوا مفسدين في الأرض ولم يعرف عنهم سلوك مشين مثل السرقة، في إشارة إلى أنهم من حسب ونسب شريفين، فهم أبناء نبي، ولكن

---

(1) تفسير البيضاواي،1 /267، والطبري 13/ 27 والألوسي روح المعاني، 13/ 34.

المنادين يصرون إصرار الواثق على أنهم سارقون (**قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَـاذِبِينَ**) [الآيـة: 74] فقال الإخوة: (**قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِـدَ فِي رَحْلِـهِ فَهُـوَ جَـزَاؤُهُ كَـذَلِكَ نَجْـزِي الظَّـالِمِينَ**) [الآية: 75]،أي يؤخذ الشخص الذي توجد صواع الملك في رحله جزاء بما سرق وفي النهايـة يلجأ إلى تفتيش الأوعية، وفي غفلة البريء، لأنهم حقًـا لم يسرقـوا، يوجـد صـاع الملـك في وعاء بنيامين، وكان عندئذ في شريعة يعقوب عليـه السـلام أن يؤخـذ السـارق جـزاءً بمـا كسب[1]، ولما طبق يوسف عليه السلام شريعة أبيه أخذ بنيامين بسرقته "الظاهرة" لأنـه طبق فيهم شرعهم.

ومرة أخرى تضطرب شخصية إخوة يوسف لما وضعوا فيـه، فـأقبلوا عـلى أنفسـهم تـارة باللوم، وتارة يتشاورون الأمر، وتارة ينسبون هذا العمل إلى يوسف وأخيه، وهـم لا يعلمـون أن سيدهم الآن هو يوسف نفسه (**قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْـلُ**) [الآيـة: 77] وسـمع يوسف ذلك ولم يعرِّف بنفسه.

س. الآيات من 77 – 82

(قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْـدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَالـلـهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ {77/12} قَالُواْ يَـا أَيُّهَـا الْعَزِيـزُ إِنَّ لَـهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {78/12} قَالَ مَعَـاذَ الـلــهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ {79/12} فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُـواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ الـلــهِ وَمِـن قَبْـلُ مَـا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْـرَحَ الأَرْضَ حَتَّـىَ يَـأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُـمَ الـلــهُ لِي وَهُـوَ خَـيْرُ الْحَـاكِمِينَ {80/12} ارْجِعُـواْ إِلَى أَبِـيكُمْ فَقُولُـواْ يَـا أَبَانَـا إِنَّ ابْنَـكَ سَرَقَ وَمَـا شَـهِدْنَا

---

(1) البنا، أحمد عبد الرحمن، الفتح الربـاني مـع مخـتصر شرحـه بلـوغ الأمـاني مـن أسرار الفـتح الربـاني، دار الشـهاب- القاهرة، طبعة بلا تاريخ، 20/ 68.

إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ {81/12} وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {82/12}) ومثلما كانت محن يوسف تتوالى بدأت محنة إخوته تتوالى، لأن مستخدمي يوسف قد استخرجوا صواع الملك من رحل بنيامين، فظاهر الأمر أنه سارق فأصبح إخوة يوسف لا يرى فيهم إلا لائمٌ أو ملوم، والخجل يتصبب منهم والذعر يمشي في عروقهم، فماذا فعلوا في هذه اللحظة العصيبة؟(**قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ**) [الآية: 77]، وعقب يوسف على ذلك في نفسه ولم يبدها[1].

ويبدو أن هذا الاتهام لا يقصد لذاته، لأنهم في موقف لو استطاع الواحد منهم أن ينسب الرذيلة إلى عضو في جسده غير العضو المتهم لفعل وهذا الموقف المعبر عنه بالرواية الحديثة بـ"الشخصية المضطربة" والفارق بين اضطراب الشخصية في قصة يوسف واضطرابها بها في الرواية الحديثة أن الحدث مطبوع في الأولى لأنها قرآن ووحي ومصنوع في الثانية لأنها إرادة كاتب أو مخرج، وقال المفسرون في معنى "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" إنه ذهب به يعقوب إلى أخته ابنة إسحاق تحضنه فأحبته حبًا شديدًا ومكث عندها مدة، ثم أتى يعقوب يطلبه فقال: فوالله ما أقدر أن يغيب عني ساعة، فقالت: "والله ما أنا بتاركه ساعة، فأصر يعقوب على أخذه منها فقالت: اتركه عندي أيامًا لعل ذلك يسليني، ثم عمدت إلى "منطقة إسحاق" وهي النطاق وكانت عندها لأنها كانت أكبر ولده، فحزمتها على وسط يوسف، ثم قالت: قد فقدت المنطقة فانظروا من أخذها؟ فالتمست فقالت اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف، وكان من مذهبهم أن صاحب السرقة يأخذ السارق له لا يعارضه فيه أحد فأخذت يوسف فأمسكته عندها حتى ماتت، وأخذه يعقوب بعد موتها"[2].

---

(1) تفسير الطبري، 13/ 27.

(2) البنا، أحمد عبد الرحمن، الفتح الرباني مع مختصر شرحه بلوغ الأماني، 20/ 68.

بهذا السند حاول إخوة يوسف أن يدرؤا الشبهة عنهم، ولعل التخبط وسوء المنقلب، صحت الرواية أم لم تصح هو ما بلغ بهم هذا المبلغ ورجوا يوسف بوسائل شتى كي يطلق بنيامين من مثل: أبوهم شيخ كبير، إنا لنراك من المحسنين، خذ واحدًا منا مكانه، ولم تفلح كل هذه الأساليب، ويبدو أن إصرار يوسف على احتجاز بنيامين فيه مكمن الوحي، والراجح أن قلبه يكاد يتفطر وهم يلحون عليه ويرجونه بأساليب يُسترق بها قلب الحليم، ثم يعيدون الرجاء بلسان موحد، فقد اتجهوا إلى ركن اتفقوا فيه على أن يتكلم واحد بلسانهم كي يكون ذلك أدعى إلى الاستجابة، وتكلم يهوذا بمثل ما تكلم به الجميع، ولكن بلا جدوى وأخيرًا يئس يهوذا، وذكر إخوته بما فعلوا بيوسف من قبل فكيف باجتماع مصيبتين؟ فقرر أن يظل في مصر حتى يأذن له أبوه بمغادرتها أو يحكم الله، ثم أمرهم بالعودة إلى أرض كنعان ويخبروا أباهم بما حصل من سرقة بنيامين واحتجازه، وعلمهم الحجة التي سيذكرونها لأبيهم مذكرًا بالميثاق الذي أخذه عليهم قبل اصطحابهم بنيامين إلى مصر، وتقوم حجتهم على:

1. في قوله تعالى على لسانهم (**ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**)[يوسف: 81]. إشارة إلى أن الميثاق الذي تم بموجبه اصطحاب بنيامين إلى مصر لا ينص على التزامهم بالأمور الغيبية، من مثل سرقة بنيامين
2. في بقاء يهوذا في مصر رسالة لأبيه لإثبات حسن النوايا
3. في قوله تعالى على لسانهم (**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**)[الآية: 82]. قال البيضاوي: "أي أرسل غيرنا إلى القرية التي كنا فيها واسأل عن القصة[1]، وبالمطابقة بين حجتهم في ضياع يوسف وحجتهم في ضياع بنيامين نخلص إلى:

(1) تفسير البيضاوي، 268/1.

أ. في المرة الأولى استخدموا لفظ "أكله الذئب" كي يظللوا الباحثين من بعدهم دون إشارة إلى مكان محدد، وفي المرة الثانية حددوا المشكلة بالضبط مكانها، وزمانها، وأسندوا إلى بنيامين فعلاً كان ظاهره لهم حقيقة، وباطنه من جهته أمرٌ لا يعلمونه، ونقلوا لأبيهم ظاهر الأمر بصدق.

ب. في المرة الأولى بداعليهم الارتباك، ومن بهذه الحال يرتبك، وفي المرة الثانية لم يمنعهم الخجل أو الحزن من الاستشهاد بوقائع تثبت حسن النوايا.

ج. في المرة الأولى كانوا مجموعة واحدة تتكلم بلسان حال واحد، وهذا دليل إجماعهم على المكيدة، وفي المرة الثانية انقسموا في قسمين: منهم من جاء يخبر ومنهم من ظل خائفًا يترقب ولم يقطع الأمل.

ع. الآيات من 83- 87

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللـهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {83/12} وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ {84/12} قَالُواْ تَاللـه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ {85/12} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللـهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {86/12} يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللـهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللـهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ {87/12})

وتلقى يعقوب عليه السلام الصدمة الثانية ببنيامين بمثل ما تلقى الصدمة الأولى بيوسف، ففي الأولى **(وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللـهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)**[الآية: 18] وفي الثانية **(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللـهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)** [الآية: 83], وفي هذه المرة لم يكد يعقوب عليه السلام يطيق سماع كلام بنيه فاتهمهم بالتآمر على بنيامين كما تآمروا على يوسف من قبل، فتنحى عنهم من شدة الحزن وظل يبكي حتى فقد بصره، وقيل

عشي، وذهب أبو السعود[1]، والفخر الرازي[2]، إلى أنه فقد بصره، وهو الراجح بدليل قوله تعالى: **(فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ)** [الآية: 96].

وفي وصف حال يعقوب في هذه الآيات، ذهب من حوله من الأحفاد وذرياتهم والمقربين مذهب من لا يعلم بخفايا الأمور ووقائعها فأصبحوا يلومونه على حزنه وبكائه، ولسان حالهم يقول: ستذهب نفسك معهما من الحزن، أشفق على نفسك، كدت تهلك، ثم يتمالك نفسه ويقول قول الصابرين، وقول الأنبياء **(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللـهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)** [الآية: 86] أي أنه قال لهم: لست أشكو غمي وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى اللـه الذي تنفع الشكوى إليه "وأعلم من اللـه ما لا تعلمون" أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم، فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا احتسب، ثم يأمر بنيه بالعودة إلى مصر باحثين عن أخويهما لأن اليأس من روح اللـه لا يستوي مع المؤمنين.

وفي ظل توالي النكسات والأزمات على يعقوب طيلة أربعين عامًا يبدو أن وصف "الشخصية الكثيفة"[3]، في الروايات الحديثة هو أقرب إلى يعقوب من وصف "البطل" لأن وصف بطل في الروايات التقليدية أو الحديثة يعني ذلك الشخص الحقيقي أو المفترض تدور حوله أحداث يرتفع وينخفض بها، ويخلص به القاص إلى نتيجة تحقق غرضه من الرواية، فمن حيث دوران مجموعة من الأحداث حوله، والارتفاع بها والانخفاض فهذا لا سبيل إلى نكرانه، أما من حيث تفرده بهذه المستويات، فقد شاكله بها يوسف، فمن منهما بطل الرواية؟

---

(1) تفسير أبي السعود 3/ 88.

(2) تفسير الفخر الرازي 18/ 193.

(3) راغب، دكتور نبيل، فن الرواية عند يوسف السباعي، ص85.

هذا وجه من وجوه الإعجاز القصصي في القرآن الكريم، يضاف إلى البؤر المتنقلة في القرآن الكريم، التي تنتقل من مكان إلى مكان بكامل مكوناتها، فيعقوب ويوسف عليهما السلام أقرب كذلك إلى لعب دور الرجل الملحمي لأن يعقوب قد التف حوله قوم طيلة أربعين سنة، والتف مثل هذا القوم حول يوسف في مصر، لأنه تبوَّأ مركزًا رفيعًا، وسنرى في الأجزاء المتبقية من القصة كيف تقترب كثيراً من الملاحم التاريخية لأنها ستنتقل من محور الفرد إلى محور الجماعة.

ف. الآيات من 88 – 93

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللـهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ {88/12} قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ {89/12} قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللـهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللـهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {90/12} قَالُواْ تَاللـهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللـهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ {91/12} قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللـهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {92/12} اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ {93/12}) للمرة الثالثة يصل إخوة يوسف إلى مصر، وفي هذه المرة يدخلون عليه ويتذللون ويشرحون سوء حالهم بسبب الجدب وإنهم لم يجدوا تجارًا يقبلون بضاعتهم وهم إلى الآن لا يعرفونه، ثم يرجونه بأن يوفي الكيل ويتصدق عليهم، وفي استخدام لفظ "يوفي الكيل" دلالة على رداءة بضاعتهم، ومن في مصر من يوفي الكيل مثل يوسف؟ وفي الأمر مفارقة عجيبة فمن الأولى أن يبادروه في أمر بنيامين، فلماذا بادروا بأمر البضاعة؟ يستوي هذا الأمر في أحد تأويلين:

أ. فإما أن يكونوا قد استخدموا هذا الأسلوب في الاستجداء كي يكون طريقًا إلى غايتهم في بنيامين، ويذكر أنهم في المرة الأولى أكرموا إكرامًا ولم يستجدوا وفي المرة

الثانية أكرموا أول الأمر لولا ما كان من أمر بنيامين في ظاهره حيث رجوا فيه يوسف غاية الرجاء واستجدوه أشد استجداء.

ب. وإما أن يكونوا قد يئسوا في بنيامين لأن شريعة أبيهم تقوم على أن يؤخذ السارق ثمن ما سرق، وهو ما قام به يوسف عليه السلام من احتجاز بنيامين، فرأوا أن العودة إلى استجدائه في بنيامين تحرمهم الأمرين: المير، وبنيامين، وفي الحالتين تحقيق لمبدأ الإيجاز في القصة لأنها راوحت بين الإيجاز والإطناب بحسب مقتضى الحال ومن المفسرين من قال: إنهم قصدوا بلفظ "وتصدق علينا" أن يطلق سراح بنيامين[1].

ومهما يكن ففي هذه المرة غلب عليهم الطبع ونجحوا في استمالة قلب يوسف في ظاهر أمر يوسف، لكن يوسف من الداخل يكاد قلبه يتفطر، إنما شدّ عليهم لأمر من الوحي- والله أعلم- فسألهم (**قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**) [الآية: 89]، فعرفوه (**قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {90/12}**) [الآية: 90] وعندئذ استشعروا الحرج، وبادر يوسف بمواساتهم والتخفيف عليهم بأن الله سيغفر لهم وهو أرحم الراحمين، وهذا هو سلوك الأنبياء في اللين والتسامح مع من يستغفر الله ويتوب, ثم يلتفت إلى قضيته الكبرى في أبيه ويطلب منهم أن يعودوا إلى أرض كنعان حاملين البشرى لأبيهم وعلامتها قميصه (**اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ**)[الآية: 93] ولو طابقنا ما بين الارتفاعات والانخفاضات عند يوسف وأبيه عليهما السلام من جهة وبين مجمل سلوكات إخوة يوسف لوجدنا أن حياة إخوة يوسف تخلو من أي مرتفع لشخوص القصة، لأنهم دائمًا يعيشون حياة الحذر والقلق والترقب، خلا هذا الموقف الذي وجدوا فيه يوسف وأخاه، ولا سبيل إلى التكفير

(1) ذكر ذلك الطبري ونسبه لابن جريح ولم يسوغه، وقال المراد هو المسامحة لرداءة البضاعة.

عن أفعالهم إلا بوجود المفقودين، والمتتبع لأحداث القصة يجد أن القصة بعد تشكيل هيئة التحقيق التي ذكرت سابقًا أخذت في تسريع الأحداث وبدأت بمراحل إعلان النتائج، وفتح الباب لمجموعات كبيرة من الشخوص في الدخول والاختفاء كوميض البرق، وهو ما يقربها كثيراً من الملحمة.

ص. الآيات من 94- 98

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ {94/12} قَالُواْ تَاللـهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ {95/12} فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {96/12} قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ {97/12} قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {98/12})

في هذه الآيات يفرج اللـه عن يعقوب وتنتهي محنته، قال ابن عباس: لما انطلقت العير من مصر إلى الشام هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال[1] وفي ذلك يقول عليه السلام (**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**) [الآية: 94] أي لولا أن تقولوا كبر الشيخ فتسفهوا رأيي، وقال من عنده (**قَالُواْ تَاللـهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**) [الآية: 95] وهم من الحفدة وغيرهم، ولا يقصد هنا بالضلال الذي هو من مرادفات الجهل، بمقدار ما يقصد أنك لا زلت على أرائك القديمة لاعتقادهم أن يوسف قد مات، وفجأة تأتي العير ويسارع يهوذا ملقيًا قميص يوسف على وجه يعقوب فيرتد له بصره ويقول منتشيًا لأبنائه (**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {96/12}**)[الآية: 96] وروي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، وسأله على أي دين تركته؟ فقال دين الإسلام، قال يعقوب: الآن تمت النعمة[2] ثم يسارع الأبناء إلى أبيهم

---

(1) الكشاف، 2/ 504.

(2) تفسير الرازي، 209/18.

طالبين منه الصفح والمسامحة، وأن يستغفر لهم **(قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)** [الآية: 97] **(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)** [الآية: 98]. ووقف بعض المفسرين عند لفظ "سوف" على نحو مما يلي:

1. يقول سيد قطب رحمه الله: وحكاية عبارته بكلمة "سوف" لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم فإنه يعدهم بالاستغفار بعد أن يصفو ويسكن ويستريح[(1)]، وقال الطبري أخر الاستغفار إلى السحر[(2)]، ويبدو لنا أمرٌ آخر هو أن يعقوب عليه السلام يريد أن يتجهز للدعاء لأن استجابة الدعاء لها آداب وشروط، وأوقات، يبدو أنها لم تتحقق كاملة ساعة طلبها، فأرجأ الدعاء لأقرب وقت تتحقق فيه ظروف الاستجابة – والله أعلم- ويبدو أن أقرب وقت كان وقت السحر بحسب ما ذكر الطبري: "أخّر الاستغفار إلى السحر" وفي هذه الأثناء يتجهز يعقوب للسفر في رحلة إلى غائب طال انتظاره، فما أبعد يوسف عن مكانه! وما أقربه إلى نفسه.

ق. الآيتان 99- 100

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ {99/12} وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {100/12})

دأبت قصة يوسف على إبراز نتائج بعد كل سلسلة من الأحداث ثم اختفاء الشخصيات التي ينتهي دورها، بانتهاء المهمات المسندة إليهم، وقد ذكرنا في مكان سابق في القصة كيف شكل الملك هيئة التحقيق، ومن ثم خلصت إلى نتائج أبرزها براءة

(1) تفسير الظلال 268/2

(2) تفسير الطبري 13/ 73

يوسف، وإدانة كل المدعى عليهم، وبذلك خرجت شخصيات كل من العزيز وامرأته والساقي، وصويحبات امرأة العزيز من القصة وبدت القصة كأنها تعرض مشهدًا ثانيًا من الأحداث تبرز فيه النتائج بالطريقة التي برزت فيها نتائج المشهد الأول، فالحاصل أن هاتين الآيتين تنصان على إبراز النتائج النهائية وتكريم الفائزين وظهور باقي الحقائق وتكشفها، لأن الآيات(**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**)[الآية: 51] أظهرت جوانب من نتائج القصة، والآيتان 99، 100 تظهران باقي النتائج على النحو الذي ترى:

1. يصل يعقوب عليه السلام مع بنيه وزوجه إلى مصر وهم نحو من مائة[1] ثم يدخلون على يوسف فيضم أبويه ويعتنقهما (**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ**) [الآية: 99] أي ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه، ثم رفع أبويه على العرش إلى جانبه وهو سرير الملك "وخروا له سجدًا" أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه، ومن الواضح أن سجودهم ليس هو سجود عبادة، قال المفسرون: إن سجودهم كان تحية وكرامة لا عبادة[2] وذلك تأويل الرؤيا التي رآها (**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**)[الآية: 4] وهم إخوته الأحد عشر، وأبوه وأمه، وبتواضع يحمد الله ويشكره على ما تحقق له ويذكر إحسان الله إليه عندما أخرجه من السجن، ولم يذكر محنة البئر مخافة إحراج إخوته، ثم يفرد جانبًا من الشكر والثناء على التآم الجمع بهذه الصورة المشرفة بعد شتات وهجر وبعد (**وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ**

(1) تفسير الطبري 13/ 73.

(2) البحر المحيط 5/ 349.

بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [الآية: 100]، ومن ثم تبدأ بعض الشخصيات بالخروج من مسرح الأحداث، لانتهاء مهماتها كما خرجت الشخصيات التي شملها التحقيق على النحو التالي:

1. يمكث يعقوب عليه السلام في مصر أربعًا وعشرين سنة، ثم يموت ويدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحاق تحقيقًا لوصيته ويدفنه يوسف بنفسه
2. انتهاء دور الأم والإخوة الأحد عشر
3. خروج الشخصيات المكملة وهم الحفدة وأبناء الحفدة في دون المائة، وينبغي التوقف عند الأم، فمن تكون؟ هل هي أمه التي ولدته أم امرأة أبيه؟ إذا صحت رواية بعض المفسرين في قصة مكوثه عند عمته ابنة إسحاق تربيه وتحضنه[1] فهو ما يؤكد وفاة أمه وهو طفل، وجاء تغييبها من القصة على الأصل، وعليه يكون لفظ "أمه" المجتزأ من "أبويه" هو أن امرأة أبيه بمنزلة الأم من حيث الحرمة والتكريم، أما إذا كانت أمه الحقيقية وقيل اسمها "راحيل" هي التي جاءت مع أبيه إلى مصر بانتهاء أحداث القصة، فإن تغييبها في مجمل الأحداث السابقة لأن يعقوب عليه السلام تبَّوأ مكانها فشعورها شعوره وقاست الويلات التي قاساها يعقوب، وفي ما يلي نرى كيف يخرج البطل نفسه من القصة معلنًا نهاية أحداث القصة بطريقة تناسب الدور الذي قام به وهو أول شخصية دخلت وآخر شخصية ستخرج، ونلفت انتباه عزيزنا القارئ إلى أننا نقصد بلفظ "دور أو أدوار الشخصيات" أنها أحداث وأدوار مطبوعة من تدبير الخالق.

ر. الآية 101

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ

---

(1) البنا، أحمد عبدالرحمن، الفتح الرباني،68/20.

وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) هذه الآية تعلن ختام القصة، وفيها الخروج الثالث والأخير لما تبقى من شخصيات القصة، وفي ما يلي المراحل التي خرجت فيها شخصيات القصة:

أ. شخصيات السجن والقصر، وذلك ما أطلقنا عليه "الشخصيات التي خرجت بعد انتهاء هيئة التحقيق وهم: الملك، وزوجته وصويحباتها، والساقي".

ب. الشخصيات التي خرجت عند لم الشمل وهم: يعقوب عليه السلام، وبنوه خلا يوسف، وكذلك خرجت زوجة يعقوب، ومجموعة شخصيات مكملة من مثل: الحفدة وكامل الذُّريَّة، والآن يدعو يوسف عليه السلام ربه أن يتوفاه مسلمًا ويلحقه بالصالحين، ويدعو ربه أن يحفظ عليه نعمة الإسلام حتى يموت، وروي أنه توفي بعد عودته إلى مصر بثلاث وعشرين سنة من دفن أبيه في الشام وبخروج يوسف عليه السلام تنتهي أحداث القصة، ويعود الخطاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد هذا الالتفات والاسترسال[1].

ش: الآيات من 102- 111

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ {102/12} وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ {103/12} وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ {104/12} وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ {105/12} وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ {106/12} أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ {107/12} قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {12/ 108} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي

---

(1) البطل في القصص والملاحم أكثر الشخصيات حضوراً, وأول من يدخل وآخر من يخرج, وهذا حال يوسف.

الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ {109/12} حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ {110/12} لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

)بختام المسك انتهت أحداث أربعين عامًا من عمر هذه القصة، ويخرج جميع الشخوص بالنهايات التي اقتضتها حكمة الله، وكانت النهايات منسجمة مع الأدوار بقرائن نصية وعقلية، وهي تثبت توبة من كان مسلمًا وأخطأ "إخوة يوسف" وإسلام من لم يكن مسلمًا معتبرًا من أحداث القصة الجسام "العزيز وامرأته وصويحباتها" وترسيخ عقيدة من لم تزحزحها الأهوال والمخاطر "يوسف وأبوه يعقوب عليهما السلام" وبقدرة ربط والتفات يعود النص إلى المخاطب وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه المعني بالخطاب، وكأنه قد تركه للتو، وهو المعني بسير كل هذه الأحداث وفيه يقال له:

1. **(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**)[الآية: 102] أي أنك يا محمد لم تكن مع إخوة يوسف وهم يمكرون، فمكر قومك ليس أشد من هذا المكر الذي رأيت، وفي ذلك حث على الدعوة والثبات.
2. إنك لا تهدي من أحببت، فعليك البلاغ وعلينا الهداية أو العدم **(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**) [الآية:103].
3. تذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قومه أمامهم الآيات الكثيرة التي تثبت وحدانية الخالق **(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**) [الآية: 105] ولكن لا يؤمن أكثرهم إلا وهم مشركون، فكيف لهؤلاء أن يأمنوا العذاب في الدنيا والآخرة؟ وما هو سندهم في هذا التجبر والعناد؟
4. أبلغ قومك بأن هذا هو السبيل الصحيح الذي أدعوكم إليه، وأنت ومن تبعك على حق إلى يوم الدين.

وفي نهاية الخطاب الموجه للرسول صلى اللـه عليه وسلم يخبره المولى عز وجل أن هناك عناءً غير عنائك وعناء يعقوب ويوسف عليهما السلام لاقاه المرسلون من أقوامهم، فلو سار قومك في الأرض لوجدوا الدلائل الكثيرة على هلاك أقوام كثر (**أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**) [الآية: 109]، وما أهلك هؤلاء الأقوام إلا بكفرهم وعنادهم، ومن اللطيف أن نشير إلى أن محمدًا صلى اللـه عليه وسلم من الأنبياء الذين لم يدعوا على أقوامهم بالهلاك، مثله في ذلك مثل إبراهيم عليه السلام، وأن هذه السورة نزلت في العام الذي خرج به لدعوة أهل الطائف وخذلوه خذلانًا أشد من خذلان أهل مكة، حتى إن جبريل عليه السلام نزل عليه وهو عائد من الطائف منتظرًا منه أن ينفذ ما يدعو به على قومه في منطقة بين الطائف ومكة، وفي وادي بين جبلين عظيمين، يقول: يا محمد سل تُعطَ فيجيب صلى اللـه عليه وسلم: اللـهم اغفر لقومي فإنهم لا يعملون، فيقول جبريل عليه السلام: صدق الذي قال: وإنك لعلى خلق عظيم، واللـه لو أمرتني لأطبقت عليهم الأخشبين، وهما جبلان عظيمان بين مكة والطائف، ويقول المولى عز وجل: (**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**) [الآية: 110] وفي ذلك حث من اللـه وعتاب لطيف في روحه:

1. نحن لم نهلك قومك استجابة لدعائك، اللـهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون
2. نحن لم نغفل عن عقاب المجرمين، فإذا لم ينل المجرمون من قومك عقابهم في الدنيا فإن بأسنا لا يرد عنهم يوم القيامة

ثم تختم السورة بلطيفة مثل اللطيفة التي بدأتها، لافتة الانتباه إلى قصة يوسف عليه السلام لأنها محور هذه السورة

الفصل الثاني

مغامرات الأبطال

وأبرز ملامح شخصياتهم في القصة

تمهيد

أولاً: الشخصيات القيادية

أ. شخصية يعقوب عليه السلام

ب. شخصية يوسف عليه السلام

ج. شخصية الملك

د. شخصية امرأة العزيز

ه. شخصية يهوذا الأخ الأكبر ليوسف

ثانيًا: الشخصيات المكملة

أ. صويحبات امرأة العزيز

ب. بنيامين

ج. المرأة المستفادة من لفظ "ورفع أبويه على العرش"

د. إخوة يوسف خلا بنيامين

ه. أعوان الملك ومستشاروه

ثالثًا: الشخصيات الحيادية

أ. الطفل الذي أنطقه الـلـه ببراءة يوسف

ب. الساقي

ج. الخباز

رابعًا: شخصيات المراقبين

أ. حفدة يعقوب عليه السلام وذرياتهم

ب. كل من كانوا يجالسونه في المحنة

ج. كل من دخل معه على يوسف في مصر عند تكشف الحقائق

د. عامة الناس من سكان مدينة العزيز

الفصل الثاني

مغامرات الأبطال

وأبرز ملامح شخصياتهم في القصة

تمهيد:

القصة والرواية من الأشكال الأدبية التي تحيي أحداثًا من الماضي، وتخرجها بالطريقة التي يريدها القاصّ أو الراوي على ألسنة شخصيات، هذا من ناحية القصص والروايات التقليدية، وقد تكون حقيقية أو لا تكون، أما قصة يوسف عليه السلام، فهي تشبه القصص التقليدية من حيث إنها جرت على ألسنة أشخاص، وتختلف من حيث إن أحداثها حقيقية مطبوعة، وتنزل بها قرآن من لدن حكيم عليم، ونحن في قصة يوسف عليه السلام أمام شخصيات برواية قرآنية، يكون فهمها وتحليلها أدعى إلى الغوص والإبحار في أعماق هذه القصة التي وصفها القرآن بأحسن القصص على نحو مما يعيننا الله في تحليل هذ الشخصيات.

وتنقسم الشخصيات في قصة يوسف عليه السلام من حيث الأدوار التي لعبتها في أربعة أقسام:

1. القسم الأول: ويضم الشخصيات القيادية وهم: يعقوب، يوسف، العزيز، امراة العزيز، يهوذا وهو الابن الكبير ليعقوب عليه السلام، وتشترك هذه الشخصيات في أنها كانت تقوم بدور التحكم والسيطرة في أحداث القصة، فكان لها دور في نتائج الأحداث، وكانت تتبعهم أشخاص ولا يتبعون لأحد.
2. القسم الثاني: ويضم الشخصيات المكملة، لأن دورها كان مساندًا لدور آخر وهم مع اتباعهم ما يلي:

أ. صويحبات امرأة العزيز: "امرأة الساقي، امرأة الخباز، امرأة صاحب الدواب، امرأة صاحب السجن، امرأة الحاجب" كن مكملات لها، وكذلك خمس وثلاثون امرأة أخريات حضرن وليمتها

ب. بنيامين كان مكملاً ليوسف عليه السلام

ج. المرأة المستفادة من لفظ(**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ**) سواء أكانت أم يوسف الحقيقية أم امرأة أبيه كما ذهبت بعض الروايات كانت مكملة لشخص يعقوب عليه السلام.

د. إخوة يوسف خلا بنيامين كانوا مكملين ليهوذا

ه. أعوان الملك ومستشاره كانوا مكملين له

3. القسم الثالث: ويضم الشخصيات الحيادية، وهم مجموعة أشخاص دخلوا واختفوا فجأة من غير أن يتبعوا أشخاصًا أو تتبعهم أشخاص، وهم:

أ. الطفل الذي نطق ببراءة يوسف

ب. الساقي

ج. الخباز

4. القسم الرابع: ويضم شخصيات تقوم بدور أشبه ما يكون بدور المراقب، ذكروا ذكرًا وكانوا أكثر الشخصيات عددًا وأقلهم حضورًا وهم:

أ. حفدة يعقوب عليه السلام وذرياتهم

ب. كل من كانوا يجالسونه طيلة سني، المحنة

ج. كل من دخل معه إلى مصر عند تكشف الحقائق وحضروا مشهد السجود ليوسف

د.عامة الناس من سكان المدينة

وفي ما يلي أبرز ملامح هذه الشخصيات على ضوء الوارد في القصة:

أولاً: الشخصيات القيادية

أ. شخصية يعقوب عليه السلام

عندما يتعلق الأمر بنبي ونحن نتحدث عن ملامح الشخصيات، نقول: معاذ الله أن نحيط بجوانب شخصية نبي، ولكن عزاءنا في ذلك أنه أسندت إليه مهمات في القصة، تركت بصمات في سير الأحداث وذلك ما سنتناوله

1. لعب يعقوب عليه السلام دور المحقق الذكي: وهو دور أشبه ما يكون بدور رجال المخابرات في هذه الأيام، بفارق أن همه كان الوصول إلى الهدف وليس معاقبة الجاني، فهو ولي أمر الجاني والمجني عليه في الأبوة والنبوة، وكان يهمه استقامة بنيه بعد تنفيذهم الجرم، وتقواهم وصلاحهم كي لا تكون مشكلة كبرى في أرض كنعان قد انطلقت من بيت نبوة، وظل يلاطف أبناءه، ولا سيما استخدامه لفظ "يا بني" ففيها تحبب أكثر من لفظ "أولاد". وهو من الذكاء ما جعله يدرك أنه بحاجة إليهم في هذه المرحلة أكثر من حاجتهم إليه.

فائدة: في هذه الأيام يقع رجال الأمن في خطأ كبير عندما يستخدمون العنف مع المشتبه بهم، فهم في ذلك كأنهم يوجهون المشتبه بهم إلى عدم الاعتراف وخاصة في الحالات التي لا يملك فيها المحقق الأمني أدلة كافية على الجرم فكثيرًا ما يكون هذا العنف سببًا في إعراض الجاني عن الاعتراف ثم يخرج المتهم وتظل أسباب الجريمة سجينه فلو لجأ يعقوب عليه السلام إلى مثل هذا العنف لقطعت كل الخيوط الممتدة في الجرم من أرض كنعان إلى مصر.

2. كان قويَّ الحجة، لولا ما كان من زلة "الذئب" لأنه بقوله: "أخاف أن يأكله الذئب" كأنه قد لقن أبناءه الحجة، فجاؤا يقولون: أكله الذئب، فلولا إرادة الله اقتضت أن تسقط هذه الزلة، لكان من الأولى ألا يوافق على ذهاب يوسف في رحلة لا يبدو أنه كان مطمئنًا إليها، ومن يملك من بنيه أن يقدم له يعقوب سببًا في عدم ذهاب يوسف؟

3. الهدوء والاتزان، ويبدو ذلك جليًا في المواقف التالية:

أ. عند فقده يوسف قال:(**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**) [الآية: 18].

ب. عند فقده بنيامين قال: (**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**) [الآية: 83]

ج. عندما لامه أحفاده على شدة الحزن والبكاء، قال: (**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**)[الآية: 86].

د. ظل يحث بنيه بعبارات الرجل الهادئ، المتزن، الواثق من فرج اللـه (**يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) [الآية: 87] ولم يتأثر عزمه بفقد الثاني كما لم يتأثر بفقد الأول، ولم يتسلل إلى قلبه وهن، ولم تسيطر عليه وحشة ضمير.

هـ. استغفر لبنيه رغم معاناته أربعين عامًا من فعلتهم، لما رأى فيهم من التوبة (**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) [الآية: 98] ومثله في ذلك مثل الرسول صلى اللـه عليه وسلم عندما استجداه أهل مكة بالصفح فقال: "أذهبوا فأنتم الطلقاء فلقد عفوت عنكم" فما أشبه اليوم بالغد، لأن هدفه التقوى والصلاح وأما شدة الحزن، وكثرة البكاء، واتخاذه أحياناً ركنًا يخلو به مع ربه فيؤكد ما ذهبنا إليه، لأن العكس هو الجفاء بعينه، فمن غيره يكتفي بهذا القدر في رحلة عناء امتدت أربعين عامًا؟

4. التواضع للـه، وتفويض الأمر إليه، وشكره والثناء عليه في كل الأحوال: فقد يوسف فصبر، وفقد بنيامين ورده إلى القدر، وفقده بصره ولم يفتر، ولقي يوسف وبنيامين فشكر.

ب. شخصية يوسف عليه السلام

الشيء نفسه الذي قلناه في يعقوب من عدم قدرتنا على تحليل شخصية نبي لأنه فوق ذلك نقوله في يوسف، إلا بالقدر الذي رأيناه في المهمات التي قام بها، وتركت بصمات في سير الأحداث، وفي ذلك نقول:

1. إخفاء جوانب الوحي في نفسه عن الآخرين، وعدم البوح بها قبل الوقت المناسب فلو قدر الله له أن يبوح بها في المواقف الحالكة في حياته لانتهت القصة عند المشهد الذي يبوح فيه قبل أن تحقق غايتها، ولكن عناية المولى ومعجزته ربطت على فيه لحين صرح بنبوته وهو في السجن، وهو أنسب المواقيت من عمر القصة، وفي ما يلي المواقف التي كان يسايره الوحي إلى أن صرح بنبوته.

أ.(**فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**) [الآية: 15] قال الرازي: وفائدة هذا الوحي تأنيسه، وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة[1]، وفي هذا دلالة على أن أخوة يوسف عاملوه بقسوة ووحشية قبل إلقائه في البئر، فربط الله على فيه ولم يبلغهم أمر الوحي

أ. التقطه السيارة من البئر وسروا به لجماله، واستبشروا خيرًا، وتداولوا في ما بينهم أمره، لكنهم في النهاية زهدوا به مخافة أن يكون هاربًا من سيده فيتعرفه، لذا باعوه بثمن بخس (**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**) [الآية: 20]. فربط على نفسه ولم يبلغ الذي انتشله أو رفاقه بأمره, لأنه بتطمينه قبل إلقائه في البئر لم يعد يخشى على شيء من أمره.

(1) الكشاف، 488/2.

ج. اشتراه عزيز مصر، قال ابن عباس وكان اسمه "قطفير"[1], وقال لامرأته أكرمي مثواه (**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**) [الآية: 21] فأي إكرام ليوسف فوق الوحي، لكنه لم يبدِ من أمره شيئًا.

د. راودته امرأة العزيز في حادثتين تسلبان من ذوي العقول عقولهم ولم يفصح عن نفسه، فصرفها وصرف صويحباتها عن نفسه بالدعاء والاستغفار.

ذ. طوف به في البلدة على ظهر حمار وخلفه طبول السخرية ودخل السجن ولم يبد من أمره شيئًا.

ر. وفي السجن بدا ليوسف عليه السلام مكاشفة أمر الوحي والنبوة ونسبه الصالح، وقصة سلفه من الأنبياء مع أقوامهم وذكر القرآن الكريم أنه دخل معه السجن فتيان وقصا عليه حلمًا (**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**)[الآية: 36], وقد فسر لهما الحلم كما رأينا في الفصل الأول، وعندئذٍ تسارعت الأحداث إلى اللحظة التي شكل فيها الملك هيئة تحقيق انتهت بإدانة امرأة العزيز وصويحباتها وتبرئة يوسف عليه السلام.

ز. كتم نفسه عندما اتهمه إخوته بالسرقة لدى قدومهم إلى مصر في المرة الثانية باحثين عن المير (**قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا**

---

(1) تفسير الطبري 12/ 175.

يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ) [الآية: 77].

س. عرف بنفسه عندما قدم أخوته إلى مصر للمرة الثالثة (**قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)** [الآية: 90].

وهكذا نجد يوسف عليه السلام لا يبدي الأمور قبل أوانها وإن تكلف في ذلك العناء الشديد

2. كان يحصل على ما يريد بالحجة والبرهان، لا بعفو السلطان

أ. في دخول العزيز ومحاولات امراته تجري لإغوائه بدت على يوسف علامات الصدق والبراءة، قبل أن ينطق الطفل الذي في الحجر، وبتقدير النص القرآني المحذوف في ما جرى من حوار بين الملك وكل من امرأته ويوسف عليه السلام، يكون العزيز قد أخذ بحجة يوسف بدليل قوله تعالى: (**فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)** [الآية: 28] وإن كان نجاح امرأة العزيز ظاهريًا لكن الحقيقة أن العزيز أخذ بأقوال يوسف عليه السلام.

ب- رفض الخروج من السجن قبل أن يتوصل العزيز إلى قناعة راسخة ببراءته، ولفت انتباه العزيز إلى النسوة اللائي دعتهن امرأته إلى وليمة وقطعن أيدهن **(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ {31/12})** [الآية: 31]. ثم يضع شرطًا للخروج من السجن (**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)**

[الآية: 50] ويذكر أن الشخص الذي أمره يوسف بالرجوع إلى الملك ليخبره عن أمر صويحبات يوسف هو الساقي.

3. كان همه ترسيخ أمر النبوة، وتجاوزه عن كل حقوقه الشخصية، وظهر ذلك جليًا في صفحه عن إخوته **(قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** [الآية: 92] ولم يذكر قصة البئر عندما دخل عليه أبواه وإخوته وهو يتقلد منصب وزير المالية في مصر مخافة أن يجرح شعورهم.

4. فيه كرم الأوفياء، وتواضع الأنبياء

ففي الأولى لم يأخذ العزيز بذنب امرأته وهي تراوده **(قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)**[الآية: 23] وفي الثانية: إنه عزا كل ما تحقق له من تفريج كرب ونبوة، وتبوؤ أرفع مناصب مصر إلى توفيق الله.

1. **(قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** [الآية: 92]

2. **(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)** [الآية: 101]

ج. شخصية الملك

وجميع شخصيات القصة خلا نبيي الله يعقوب ويوسف عليهما السلام تبدو أكثر طواعية للبحث والاستقصاء، لأن شخصيات الأنبياء عليهم السلام تدخل النبوة ووحي الله في تحديد مسارهم السلوكي في كثير من الأحيان ما يقيد رأي الباحث، فكلنا دونهم، والذي يبدو لنا في شخصية الملك أنه:

1. **يتسم بالهدوء والكياسة** فبعد أن تأكد لديه زيف ادعاء امرأته، كان تركيزه على كتمان الأمر (**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**) [الآية: 29] واحتفظ لنفسه بما سيقوم به، ولم يفصح عنه أمام المتخاصمين.

فائدة: ذهبت بعض الأقوال إلى أن الملك لم تكن لديه غيرة الرجال على نسائهم في مثل هذه المواقف، لكن هيئة التحقيق التي شكلها بخصوص امرأته وصويحباتها، ويوسف في السجن أبدى فيها صرامة تدحض هذا الرأي، فهو لم يتورع من إدانة الجميع بمن فيهم امرأته، وتبرئة يوسف عليه السلام.

2. **كان متفهماً لنواحي سلوكية عند امرأته تقتضي التريث والهدوء**، قال ابن كثير: كان زوجها لينًا سهلاً فعذرها على فعلها[1]،هو لم يعذرها على فعلها، لكنه عليم بأنها شرسة، ومنهم من عبر عن شراستها بأنها ذات سطوة، ففي محاولتها الأولى كان العزيز متفاجئًا تمامًا بهذا السلوك فكان همه ستر الرذيلة أولاً قبل التفكير بأي سلوك عقابي، فالتسرع في العقاب بمثل هذه المواقف أدعى إلى إشاعة الفاحشة وهو لا يريد ذلك.

3. **فيه صبر الحليم وسطوة الكريم**

ظهر صبر الحليم عند الملك جليًا واضحًا في المحاولة الأولى لامرأته، عندما اكتفى بـ(**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**)[الآية: 29] بما في ذلك من دلالة واضحة على قناعته، فمن المفسرين من قال: فعل ذلك حفاظًا على الظواهر[2] ومنهم من قال: عذرها[3]فأيًا كان الذي بنفسه فإن بذلك صبر الحليم.

وظهرت منه سطوة الكريم في أمرين:

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير، 2/ 247.

(2) الظلال، 231/2.

(3) البحر 5/ 301.

أ. القسوة على يوسف عندما طُوِّف عليه السلام على ظهر حمار بعد محاولة امرأته الثانية في إغواء يوسف، هو ليس مقتنعًا بهذا العقاب، ولكن يريد أن يحفظ ماء وجهه في المدينة، فرأى أن عقاب البريء أخف من إشاعة الرذيلة، فلو لم تكن عنده قناعة راسخة ببراءة يوسف لقتل[1].

ب. صرامته في الإجراءات التي قام بها بعد استكمال التحقيقات مع امرأته وصويحباتها في المحاولة الثانية لإغواء يوسف، ويذكر أن نتائج التحقيق كانت عقلية، أقلها أنه طلق امرأته، لأن حلمه المفزع قد قلب الطاولة على رأسها، ورأس من اتهمه في المدينة بالخنوع أمام امرأته، والسماح لها بالرذيلة.

ج. قتله الخباز، قيل لأنه دبر مع الساقي مكيدة لقتله أولأنه أفشى سرًا من أسرار القصر في قضية مختلفة تمامًا عن سيرة امرأته.

4. فيه تسامح المقتدر وعفوه

وظهر ذلك في إطلاق سراح الساقي، لأن ذنبه لا تصل عقوبته إلى القتل فاكتفى بالسجن، وعاد الساقي إلى سابق عهده بزوال أسباب السجن.

5. فيه كرم الملوك

وكل ما كان من أمره مع يوسف عليه السلام فيه كرم الملوك لولا عقابه ليوسف ظاهريًا عند دخوله السجن لأنه كان مكرهًا فلم يكن أمامه سبيل لدرء رذيلة امرأته بحسب تقديره واجتهاده إلا بما قام به، وفي ما يلي مجمل سلوكاته في القصة التي تحقق فيه كرم الملوك:

1.(**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**

---

(1) تفسير القرطبي 9/ 184.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ {21/12} وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [الآية: 21- 22] وأي دلالة أكبر من ذلك.

2. (**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) [الآية: 23] وهذه شهادة له من يوسف عليه السلام وهو في حجره.

3. (**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ**)[الآية: 54] وذلك لما ظهر للملك في هيئة التحقيق التي أجراها أنه قد ظلم يوسف بسجنه فكان الرد متناسبًا مع كرم الملوك ومكافأة الشريف، ورد اعتباره.

6. **كان الملك يأخذ بالبراهين والأدلة في كشف الحقائق وتحقق ذلك في أمرين:**

عندما سمع شهادة الطفل الذي أنطقه اللـه في المهد، لم يمار في الحقيقة فكان رده على يوسف ومن حاولت إغواءه واضحًا فيه قناعة بالبرهان والدليل (**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**)[الآية: 29]، والأمران هما

1. خلص إلى براءة يوسف عليه السلام بعد وضوح الأدلة في هيئة التحقيق التي شكلها.
2. أخضع تفسير يوسف لرؤياه المفزعة للعقل فقبل التفسير.

7. **كان صريحًا وكتومًا في آن واحد بحسب مقتضيات الحال وظهر ذلك في حالتين هما:**

1. عندما رأى سبيلاً إلى كتمان رذيلة امرأته، قال ما قاله لها وليوسف عليه السلام.
2. عندما أدخل يوسف السجن بعد المحاولة الثانية لامرأته وتبين له عكس الادعاء، لم يتورع في استدعاء صويحباتها اللائي شاركنها الجرم في إغواء يوسف، وخلص في هيئة التحقيق إلى إدانة الجميع وتبرئة يوسف، بالرغم من أن ذلك فيه إشاعة

الفاحشة، لكنه رأى أن الفاحشة تكون أكبر لو لم يصارح في كشف الحقيقة، هذا ما تراءى لنا والله أعلم

د. شخصية امرأة العزيز

كان سلوك امرأة العزيز أكثر ما يكون في أن أمامها هدفاً تسعى إلى تحقيقه بطرق شتى، تدرجت فيها من المراودة إلى التهديد، وما من شك في أن هدفها الأسمى هو أن تضاجع يوسف عليه السلام، وكان ما قبل هذا الهدف سببًا له، وما بعده نتيجة، وفي ما يلي أبرز الفواصل في شخصيتها.

1. **ما من شك في أنها امرأة أمةٌ لشهواتها**، وقد كانت عازمة ومصممة على تحقيق ذلك في الممارسات التالية:

أ. استخدام أسلوب المراودة مع يوسف عليه السلام والمراودة هي شكل من أشكال الطلب، برفق ولين، دون الجهر بالقول، أو هي شكل للمكر والخديعة في ثوب البراءة، واستخدمت ذلك امرأة العزيز لجر يوسف عليه السلام إلى فراشها **(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللـهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)** [الآية: 23].

ب. بلوغها مرحلة فوق المراودة عندما همت به، أي توجهت إليه بعزم وقصد وإصرار، أما يوسف عليه السلام فلفظ "هم بها" يقف عند حديث النفس دون مطاوعتها، وتوجه إليها ليدفعها عن نفسه، لأنها قدمت إليه بالروح والجسد "بعنفها الجنسي" **(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)**[الآية: 24].

ج. كانت مراوغة مع زوجها نفسه فوق المراودة وهمها بيوسف وهو المستفاد من قوله تعالى: **(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**[الآية: 25]

والمراوغة هنا في أمرين:

1. سرعان ما لبست ثوب العفة أمام زوجها وألقت على يوسف الفعل الذي قامت به
2. في قولها: "إلا أن يسجن أو عذاب أليم" انزياح عن الواقع فلو كانت صادقة لقالت: "إلا أن يقتل أو عذابٌ أليم" لكنها لا تريد أن يقتل يوسف أو يعاقب في حقيقة الأمر، كي تعيد الكرة مرة أخرى، فأظهرت للملك ثوب العفة، وأخفت ما تريد أن تحققه لاحقًا، وأي مراوغة أكبر من ذلك؟!

د. ثم ارتقت إلى أسلوب التهديد في الحفل الذي استدعت فيه صويحباتها لما علمت بمكرهن (**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ {31/12} قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ {32/12}**)

هـ. وذهب بعض المفسرين مذهبًا عقليًا في قوله تعالى: (**وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**)[الآية: 32] إلى أنها خلعت ثياب العفة، وأغرب الغرائب، وأعجب العجائب في هذه الأثناء أن صويحباتها يتعاطفن معها، ويطلبن من يوسف طلبًا موحدًا بارتكاب الفاحشة فيدعو ربه أن يفرج عنه بالسجن فيستجاب له (**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**) [الآية: 33]

2. إنها امرأة عنيفة

أظهرت الآيات جوانب العنف في شخصيتها (**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**)[الآية: 32] وقال

صاحب البحر "أرادت منه الفاحشة بلفظ صريح"[1]، متجاوزة بذلك أساليب المراودة والمراوغة والإغراء.

فائدة: من هنا ذهبت بعض الأقوال إلى أنها ذات سطوة وشخصية قوية مؤثرة عند العزيز، فإن كان كذلك فلماذا وضع العزيز حدًا صارمًا لغطرستها في هيئة التحقيق التي شكلها؟ ولماذا قلبت الطاولة على رأسها في الاجتماع؟

3. إنها امرأة تتقن دورها في الإقناع والتأثير

فلولا انتكاساتها التي أرادها الله بعد حلم الملك وما كان من أمر الساقي في الوصول إلى يوسف في السجن طالبًا منه تفسير الحلم وفسره يوسف بما يطمئن الملك، لأعلنت براءتها وإدانة يوسف، فعندما دعت صويحباتها إلى الوليمة نجحت في:

أ. انتزاع اعتراف صويحباتها بأنها غير ملومة بما قامت به

ب. إشراك صويحباتها في إغواء يوسف

ج. توصلت مع الملك إلى قناعة بسجن يوسف، ووضعت الملك أمام خيارين فإما أن تخرج بنفسها وتعتذر للجميع عما قامت به، وإما أن يسجن يوسف لحين من الزمن، (**ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**) [الآية: 35] عندئذٍ كان أخف الخطرين في تقدير الملك أن يسجن يوسف.

4. اعترافها بكل ما قامت به مع يوسف، واعتراف صويحباتها يمكن أن نستخلص منه النتائج العقلية التالية:

أ. إسلامها وصويحباتها

ب. إسلام الملك نفسه

ج. تأكيد نبوة يوسف عليه السلام للجميع

(1) تفسير البحر المحيط 293/5.

ويستحسن السكوت عن الأسئلة والأقوال التي ترددها بعض الألسنة بعد هـذه النتـائج من مثل:

1. هل طلقها العزيز أم لم يطلقهـا؟ لأنـه إن أسـلم العزيـز وأسـلمت فلـماذا يطلقهـا؟ وإن طلقها فهو انتصار الأحرار.
2. هل تزوجها يوسف أم لم يتزوجها إن طلقت؟
3. هل طلقت صـويحباتها الخمـس: امـرأة السـاقي، امـرأة الخبـاز، امـرأة السـجان، امـرأة صاحب الدواب، امرأة الحاجب" أم لم يطلقن؟ فالنتيجة العقلية المسـتفادة مـن خـروج الملك من القصة بعد هيئة التحقيق هي أنه وضع الأمور في نصابها.

هـ. شخصية يهوذا الأخ الأكبر ليوسف

1. لقد امتاز هذا الشخص بتصارع شخصيتين في نفسه منـذ بدايـة القصـة إلى منتهاهـا، ولا نقصد بتصارع شخصيتين في نفسه مـا يـذهب إليـه علـم الـنفس مـن معنـى: "انفصـام الشخصية" فالذي نعنيه أن بذرة الخير لم تقتلع من نفسه في جميع المواقف التـي ظهـر فيها العداء ليوسف على نحو مما يلي:

أ. أجمع إخوته على مكيدة التخلص من يوسف بالقتل، أو الإيذاء البدني الشديد، وخرج عليهم بفكرة الإلقاء في البئر وهي أخف مصيبة من القتل أو الإيـذاء الشـديد (**قَـالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّـيَّارَةِ إِن كُنـتُمْ فَاعِلِينَ**) [الآية: 10].

ب. سئم إخوته استجداء يوسف في إطلاق سراح بنيامين لما وجـدت السـقاية في رحلـه، وهو الذي أصر على البقاء في مصر حتى يأذن له أبوه (**فَلَـمَّا اسْتَيْأَسُـواْ مِنْـهُ خَلَصُـواْ نَجِيًّـا قَـالَ كَبِـيرُهُمْ أَلَـمْ تَعْلَمُـواْ أَنَّ أَبَـاكُمْ قَـدْ أَخَـذَ عَلَـيْكُم مَّوْثِقًـا مِّـنَ اللّـهِ**

وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللـهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {80/12}) [الآية: 80].

ج. اتفق أخوة يوسف على أن يعيد "يهوذا" رجاء يوسف في إطلاق سراح بنيامين، لما رأوا فيه من تعاطف مع أبيه أكثر منهم.

د. كان صادقًا في نقل ظروف احتجاز بنيامين إلى أبيه عن طريق إخوته، وفي نقل الحجة ما يفهم التعاطف والشفقة (**ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**)[الآية: **81**].

2**.** **قوة شخصيته:** كان يفرض رأيه على الجميع متى رأى ذلك ضروريًا، ولا أدل على ذلك من المواقف التالية:

أ. اقترح أن يلقى يوسف في البئر بدلاً من القتل أو الإيذاء، وهو ما تم بالفعل

ب. هو الذي جاء بالقميص الملطخ بدم كذب، وهو الذي جاء بالبشرى لما رأى على والده من حزن شديد في المرة الأولى من غير أن ينازعه أحد في الفكرة.

ج. هو الذي أمر إخوته بالعودة إلى أرض كنعان ليخبروا أباهم قصة احتجاز بنيامين، وهو الذي ألح على يوسف بإطلاق سراح بنيامين بموافقة الجميع (**ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** {**81/12**} **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**)

د. كان قائد الرحل في جميع تحركات إخوته.

هـ. يقظة ضميره: في ما خلا إلقاء يوسف في البئر، لم يقدم على سلوك يزيد من معاناة أبيه، بل كان حريصًا على القيام بما يفرّج عن أبيه، ولا أدل على ذلك من (**فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللـهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**)[الآية: **80**] وكان حثه وتوجيهه لإخوته في روحه معاني يقظة الضمير.

ثانيًا: الشخصيات المكملة

أ. صويحبات امرأة العزيز:

"امرأة الساقي، امرأة الخباز، امرأة صاحب الدواب، امرأة الحاجب، امرأة صاحب السجن" وكذلك خمس وثلاثون امرأة من نساء المدينة، كنّ مكملات لها.

ويقصد بالشخصية المكملة: الشخصية التي ليس دور مستقل في القصة وأن الدور الذي أسند إليها، جاء مكملاً لدور ما أو تابعًا له، فالنساء الخمس المذكورات كنَّ في قصر الملك، وقد استدعين مع خمس وثلاثين امرأة إلى حفل أعدته امرأة العزيز لهن، لما شاعت رذيلتها، واستطاعت امرأة العزيز أن تجذبهن إليها ونسين ما لمنها فيه، وشاركنها في إغواء يوسف ومحاولة استدراجه إلى الرذيلة سوءٌ أكان إليهن أنفسهن أم إلى امرأة العزيز، وعندئذٍ صرن مع امرأة العزيز في عداد شخصية واحدة حاولت إغواء يوسف، وفي الآية الكريمة التالية ما يجعلهن كأنهن شخص واحد (**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ {31/12} قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ {32/12}**)[يوسف: 31- 32]

ب. بنيامين كان مكملاً ليوسف عليه السلام

فحاله كحال يوسف في أنه:

1. شقيقه
2. المسلي لأبيه بعد فقده
3. كان مكملاً لمحنة يعقوب في احتجازه الظاهري بمصر
4. مكوثه مع يوسف مدة من الزمن في احتجاز ظاهري

ولم يكن له دور مستقل في القصة لولا أن يتبوّأ المكان الذي يريده يوسف، أو يوقف الله عنده يوسف.

ج. المرأة المستفادة من لفظ "ورفع أبويه على العرش"

أيًا كانت هذه المرأة، فهي مكملة لدور يعقوب عليه السلام في أمرين:

1. الأبوان كالشيء الواحد بالنسبة للأبناء، ولهذا لم تفرد بكلام عند دخولهم على يوسف[1] ولم تفرد بشيء في أي من مناحي القصة
2. الأبوان في الأصل أن تكون نظرتهما إلى الأبناء واحدة في الرخاء والشدة

وعن هذه المرأة قيل: إنها أمه حقيقة وقيل: بل هي زوج أبيه ففي الحالتين لم ترو القصة دورًا منفصلاً لها عن الدور الذي دخلت به مصر مع ذرية يعقوب عليه السلام.

د. إخوة يوسف خلا بنيامين

أولاً: التطابق الفكري إلا ما كان من يهوذا في بعض المواقف

يكاد يكون أخوة يوسف خلا يهوذا شخصًا واحدًا في القصة إلا ما يخصص "يهوذا" بشيء من قبيل التفرد والاستثناء، وفي ما يلي أبرز المواقف التي ذكرتهم القصة كأنهم شخص واحد:

1. (**لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ**) [الآية: 7] بإخراج يوسف من المجموعة
2. (**إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**) [الآية: 8] بإخراج يوسف وأخيه من المجموعة.

(1) الطبري، 13/ 72.

3. (اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) [الآية: 9] الأمر بلسان الجميع إلا ما كان من يهوذا فإنه ليس مع مبدأ القتل فنزل به قوله تعالى.

4. (قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) [الآية: 10]

5. (قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) [الآية: 11]

6. (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الآية: 12]

7. (قال إني ليحزنني أن تذهبوا به) [الآية: 14]

8. (فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) [الآية: 15]

9. (وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ) [الآية: 16]

10. (قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) [الآية: 17]

11. (وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)[الآية: 18]

12. (وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)[الآية: 58]

13. (وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) [الآية: 59]

14. (فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ)[الآية: 60]

15. (قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) [الآية: 61]

16.(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الآية: 62]

17.(فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[الآية: 63]

18.(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [الآية: 64]

19.(وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)[الآية: 65]

20.(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) [الآية: 66]

21.(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) [الآية: 67]

22.(وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) [الآية: 68]

23.(وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [الآية: 69]

24.(قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) [الآية: 73]

25.(قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) [الآية: 75]

26.(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللـهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[الآية: 76]

27.(قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللـهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ) [الآية: 77]

28.(قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الآية: 78]

29.(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللـهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللـهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) [الآية: 80]

30.(ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)[الآية: 81]

31. (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) [الآية: 82]

32.(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللـهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [الآية: 83]

33.(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) [الآية: 84]

34. (قَالُواْ تَاللـه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) [الآية:85]

35. (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللـهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) [الآية: 86]

36. (**يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللـهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللـهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) [الآية: 87]

37. (**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللـهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**) [الآية: 88]

38. (**قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**) [الآية: 89]

39. (**قَالُواْ تَاللـهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللـهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ**) [الآية: 91]

40. (**قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللـهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**) [الآية: 92]

41. (**اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ**) [الآية: 93]

42. (**قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**) [الآية: 97]

43. (**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) [الآية: 98]

فأما تغييب ذكر أسماء أخوة يوسف وهم عشرة خلا بنيامين فقد جاء على الأصل لسببين هما:

أنهم كانوا جميعًا في مجريات أحداث القصة على لسان رجل واحد خلا المواقف التي يخرج عليهم يهوذا في شيء، يتفرد به ثم يقودهم إلى هواه، كما في (**قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ {10/12}**) [الآية: 10] أو شيء يستأثر نفسه به (**ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ {81/12}**) [الآية: 81] ففي الآية "81" أمر أخوته بالعودة إلى

أرض كنعان وظل في مصر، وفي الآية "10" فرض على إخوته أن يستبدل الإلقاء في البئر من القتل.

1 **أنهم كانوا ممثلين بشخص يهوذا، ولم تشهد القصة حدثًا واحدًا خرجوا فيه عن طوعه**

وهذا ما جعلنا نقول في حديثنا عن شخصية يهوذا إنه قيادي ذو تأثير على مرؤوسيه

ولو أردنا تقسيم أبناء يعقوب عليه السلام من حيث تطابقهم الفكري لكانوا في ثلاثة أقسام هي:

1. يوسف وبنيامين
2. يهوذا
3. الإخوة التسعة الباقون

ثانياً: حظيتهم بوفرة من الضمائر وسمت القصة بطابع الالتفات

والالتفات في اللغة هو التنويع في صيغة الضمير من حال إلى حال والضمير في اللغة يأتي في الأصل للاختصار، ولهذا عبر عنه بعض المفسرين بـ"المكنىّ"[1] أي الذي يرمز إلى الشيء بإحدى لوازمه، وهذا ما تحقق في جميع الشواهد التي كنَّت عن إخوة يوسف بالضمير، لأنهم في عداد شخص واحد عبر عنه بلغة الجمع، ولكن وفرة الضمائر التي كنّت عن إخوة يوسف في القصة تحتاج إلى تحليل، لأنها زادت على نصف مجموع الضمائر، حتى غدت وفرة الضمائر في القصة سمة اتسمت بها وفي ما يلي رؤية عامة في الضمائر التي كنّت عن إخوة يوسف:

1. غالبية الضمائر جاءت على أصل حالها في الاختصار وما جاء على أصل حاله، فإنه لا يحتاج فيه إلى دليل، وهذا من أصول النحو[2].

---

(1) الطبري، 72/13.

(2) ابن يعيش شرح المفصل ، 95/3.

2. عبر عن كثرة إخوة يوسف الذين كادوا به بوفرة الضمائر، فكلهم كادوا به خلا بنيامين.
3. الأحداث التي نسبت إليهم في القصة كثيرة فيناسبها الضمير للاختصار
4. جميع الضمائر في الشواهد التي ذكرناها مؤولة بـ"إخوة يوسف"

فلو كررنا لفظ إخوة يوسف في القصة بعدد المرات التي تقتضي ذلك ومن غير ضمير, فأي لون من ألوان البلاغة والإعجاز يبقي عليه هذا التكرار؟ فاستبدلت القصة الضمائر العائدة على إخوة يوسف من لفظ إخوة يوسف تجنبًا للوقوع في التكرار الممل، لأن لفظ "إخوة يوسف" لفظ جامد ليس فيه طواعية الاشتقاق والتنويع، في حين أن الضمائر يطوعها البليغ بالتفاتاته حيث يريد من غيرملل عند المتلقي، وما رأينا في القصة ضميرًا واحدًا كان تكراره مملاً، بل كنا نجد في كل التفاتة ضمير التفاتة إعجاب عند القارئ أو السامع.

5. إن وفرة الضمائر العائدة على إخوة يوسف في الشواهد التي ذكرنا لا تخلو من الانزياحات البلاغية على نحو من:

أ. في لفظ "ليوسف وأخوه" أفاد الضمير معنى الكراهية والازدراء بدلاً من الاختصار

ب. في لفظ "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" أفاد ضمير الغيبة الذي في "يسرق" وهو العائد على بنيامين معنى الشماتة والسخرية بدلاً من الاختصار.

6. لم يكن إخوة يوسف في نفس السامع موضع إعجاب خلا ما كان منهم في آخر القصة من طلب الاستغفار، فاستعيض عنهم بالضمير بدلاً من تعددهم، فحل الالتفات بالضمير بعنصر التشويق محل "إخوة يوسف" بما فيهم من سأم.
7. إفراد يهوذا من المجموعة في المواقف التي لا يتطابق فيها معهم، كما في حادثة الإلقاء في البئر، والطلب من إخوته أن يعودوا إلى أرض كنعان ليخبروا أباهم بموضوع السرقة "على ظاهر الأمر".
8. القصة كانت تعالج مجموعة من الأحداث تسير معًا وكانت في نهاية كل حدث تعود لتكمل حدثًا له علاقة، وهذا يحتاج إلى ربط محكم، وبصفة إخوة يوسف

أكثر شخصيات القصة تدويرًا كانوا أكثرها احتياجًا إلى الضمائر، لربط الأحداث، ويذكر أن الضمير من أدوات الربط.

وكلمة أخيرة عن تكرار الضمير العائد على إخوة يوسف، والتنويع فيه من الغائب إلى المخاطب أو المتكلم، نجد فيه من الاختصار والتشويق بدلاً من الإطالة التي يصحبها الملل، وفي ما يلي مثال من لغة العرب على التكرار المحبب، انظر إلى كلمة "الغضا" في أبيات مالك بن الريب وهو يرثي نفسه، يقول:

آلا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة	بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه	وليت الغضا ماشي الركاب لياليا
فيا زيد عللني بمن يسكن الغضا	وإن لم يكن يا زيد إلا أمانيا
أحب الغضا حبًا شديدًا كأنما	إزا ذا الغضا ودعت أهلي وماليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا	مزارٌ ولكن الغضا ليس دانيا

فالغضا هو نوع من الشجر شوكي ذو نار حامية، له علاقة في ثقافة الشاعر ونفسه، يعني لديه الكثير، استطاع أن يبوِّئه في أبيات قليلة مكانًا في نفس السامع، لا يمله فيه، فكيف لو كان الأمر في نص قرآني ليس من لغة بشر؟ فعلى هذه الشاكلة كانت وفرة الضمائر في السورة عامة، وفي ما يتعلق بأخوة يوسف خاصة.

هـ- أعوان الملك ومستشاروه

المستشارون والهيئات العليا في بلاط الملوك عادة لا تسمع بهم الناس إلا في الأزمات والأحداث الجسام، فيدخلون فجأة وتظل أسماؤهم تتردد طيلة أيام الأزمة، ثم يختفون وربما لا يعودون بحسب قدرتهم على مساعدة الملك في إدارة الأزمة، وجل أعمالهم داخل القصر، وعلاقتهم مع الملك مباشرة، فلو لم يستدعهم العزيز، لما سمعنا بوقائع هيئة التحقيق التي أجراها ومهما يكن فقد دار بينهم وبين الملك أمور أهمها:

أ- رذيلة امرأته لأن أمرها تفشى

ب-رذيلة صويحباتها، ويفهم عقلاً أن جلّ نساء القصر من زوجات المقربين من الملك، لذلك لم يستشعر الحرج في الاجتماع

ج- تفشي خبر الرذيلة في المدينة

هذا ما كشفت عنه القصة، ولكن النصوص العقلية تقول: إنه استقصى معهم كل ظروف يوسف وصويحبات امرأة العزيز من النواحي الأمنية والاجتماعية والسياسية في مملكته، وبالنظر إلى أن دور المستشارين لم يكن منفصلاً عن دور الملك، فيكاد يكون المستشارون جزءًا منه.

ثالثًا: الشخصيات الحيادية

وهم مجموعة أشخاص دخلوا واختفوا فجأة من غير أن يتبعوا أشخاصًا أو تتبعهم أشخاص، فهم على قلة الدور الذي لعبوه إلا أنهم دخلوا في ساعات مفصلية من عمر القصة، وكان لكل واحد منهم دور في اتخاذ القصة منعطفًا جديدًا، وهم:

أ. **الطفل الذي أنطقه الله ببراءة يوسف (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ)** [الآية: 26]

ذكر غير مرة ما قامت به امرأة العزيز من محاولة في إغراء يوسف بجذبه إلى فراشها، وذلك في المرة الأولى، فتخيل لو أن لم يشهد أحد بمثل هذه الشهادة كيف يكون حال الملك وقد رأى علامات الإجهاد ماثلة على الخصمين؟ هذا يهرب منها وهذه تلاحقه،"واستبقا الباب" وعليهما الإجهاد والانفعال، من يخبر الملك أن إجهاد يوسف إجهاد الهارب من معركة وإجهادها إجهاد الذي تملكه الشيطان؟ فمن حيث عوارض الحدث لم تكن في صالح يوسف، وهو في ظاهر الأمر مسترق، فمن يناصره، أو يشهد لصالحه؟ وما وزنه– على ظاهر الأمر- في بيت ملك؟ بمثل هذه الظروف لا ينجو المتهم إلا بمعجزة، والمعجزة لا تتأتى إلا للأنبياء، فكانت المعجزة في نطق الطفل، وقد وقف المفسرون عند نطق الطفل باجتهادات من مثل:

1. قال ابن عباس: إن هذا الطفل ابن خالها(1)

وقال في تفسير البحر: وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة(2).

ثم إن الطفل لخص الأمر للملك بإيجاز (**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ**) [يوسف: 26] ثم اختفى الطفل من مسرح الأحداث لسببين هما:

أ. إن المعجزة أصلاً غير قابلة للتكرار وإلا فقدت معناها

ب. جاء بالأمر الفصل، وإن استمراره في المشهد مخالفة لنواميس الطبيعة، فكان تغييبه من مسرح الأحداث بعد الإدلاء بالشهادة قد جاء على الأصل.

ونحن عندما وسمنا شخصية الطفل بالحيادية كان ذلك لأن الطفل لم تكن له مصلحة مع أحد، فلم يحابِ في شهادته أو يمارِ، هذا إذا أخذت الأمور بظواهرها، وأما سر هذه الشهادة فهي معجزة من اللـه لبراءة يوسف، ومهما يكن فقد دخل الطفل فجأة واختفى فجأة بحياد.

فائدة: تتلاقى المعجزة والمكرمة والموعظة في أمر، وتختلف في ما سواه على النحو الآتي:

كل من المعجزة والمكرمة والموعظة تأتي بغريب، وأمثلة ذلك:

1. القرآن الكريم هو معجزة: لأنه جاء بما لم يأتِ به كل فصيح وفي ذلك غرابة
2. في معركة القادسية بينما كان عمر بن الخطاب في خطبة الجمعة، قطع الخطبة وخاطب "سارية" وهو أحد قادة القادسية قائلاً: يا سارية الجبل الجبل منبهًا إياه إلى ما قام به الفرس من عملية التفاف حول الجبل، ولما عاد الجيش قال سارية: لقد سمعت كلام الفاروق وأنا على جبل القادسية، فذلك مكرمة للاثنين: عمر بن

(1) تفسير الطبري، 12/ 193.

(2) البحر 5/ 297.

الخطاب شاهد عملية الالتفاف وهو في المدينة، وسارية سمع صوت عمر وهو فوق جبل القادسية أليس ذلك بغريب؟

3. الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه، وطعامه لم يتسنه(**فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ**) لأنه شك في البعث وإحياء الموتى، فبذلك موعظة له، أليس ذلك بغريب؟!

فهذه وجوه اتفاق وإعجاز تتلاقى عندها الثلاث وتتباين في الآتي:

1. المعجزة من باب عجز[1]،وهي خصوصية الأنبياء يأتي بها الله ليؤيدهم، ويعينهم على رسالتهم كالكتب السماوية، وعصا موسى، وناقة صالح وغيرها.
2. المكرمة من باب كرم[2] تعطى من كريم، ومن أكرم من الله؟ وهي دون المعجزة، تعطى للأنبياء، أو لمن يريد الله أن يكرمهم بشيء، فهي ليست خصوصية أنبياء ما دام أنها قد تعطى لبشر، إذًا فالأنبياء بها وبما فوقها، وأوفياء الله بها فقط.
3. الموعظة من باب وعظ[3]، تعطى من قدير، ومن أقدر من الله؟ فهي تعطى لشخص في نفسه ريب في أمر من أمور الدنيا أو الآخرة, أو لشخص تمادى في غيه، أو شخص يريد الله أن يشرح صدره للإسلام، أو تعالج تقصيرًا عند فئة من المسلمين، فالأنبياء فوق كل ما ذكرنا.

فلها وجوه لا حصر لها من مثل:

أ. لما غاصت قوائم فرس سراقة بن مالك في الرمل عندما لاحق الرسول صلى الله عليه وسلم في هجرته في ذلك موعظة له وردع لأمثاله، استفاد من هذه الحادثة وأسلم.

(1) لسان العرب، مادة: عجز.
(2) لسان العرب مادة: كرم.
(3) لسان العرب، مادة: وعظ.

ب. عندما رأى إخوة يوسف نتائج كيدهم، وتحقق نبوّة يوسف تابوا وطلبوا من أبيهم الاستغفار، ثم استغفر لهم وصلح أمرهم.

ج. عندما نطق الطفل في قصة يوسف كان ذلك علامة فارقة في حياة الملك

د. رؤيا العزيز نفسها علامة فارقة في حياته

ه. فشل امرأة العزيز في إغواء يوسف، وتجييش صويحباتها معها ثم تكشف أمرهن كان علامة فارقة في حياتهن جميعًا، وربما تكون قصة الطفل أول علامة ناطقة بشكل مباشر على نبوّة يوسف في مناحي محنته التي تكررت في القصة، والمعجزة كما قلنا خصوصية نبي تقع دونها المكرمة والموعظة.

ب. الساقي

الساقي هو شخص حيادي من حيث الدور الذي قام به، وليس حياديًا بالمفهوم المقابل للنفعية، فمن حيث النفعية كانت له مصلحة في تفسير حلم الملك، لأنه كان حديث عهد بالخروج من السجن والعودة إلى سابق عهده في سقيا الملك خمرًا، فيريد أن يرضي الملك بأي وسيلة، وهو أحد الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف (**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**) [الآية: 36]، ثم عفا عنه الملك ولما حلم الملك حلمه المفزع (**وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**) [الآية: 43] وعجز الكهنة والمنجمون عن تفسيره (**قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ**) [الآية: 44]، كانت فرصته في أن يأتي للملك بقول فصل ليريحه ويحظى بإسعاده فقال للملك أنا آتيك بتفسير حلمك، لأنه جرب على يوسف الصدق في تفسيره حلمه نفسه الذي بشره فيه بأن سيطلق سراحه ويعود إلى سابق عهده في سقيا الملك خمرًا (**يَا صَاحِبَيِ**

السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) [الآية: 41] انطلق هذا الساقي إلى السجن وسأل يوسف عن تفسير حلم الملك المفزع (**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**) [الآية: 46] ثم جاء من يوسف بهذا التفسير (**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ {47/12} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ {48/12}**) وبعد ذلك سر الملك بتفسير الحلم، وذكرنا تفاصيل إخراج يوسف من السجن وتكشف الأمور لدى الملك في هيئة التحقيق التي شكلها وما كان فيها من إدانة امرأته وصويحباتها وتبرئة يوسف، خرج هذا الساقي فجأة، ثم قدم دوره الذي تحدثنا عنه وبعد ذلك اختفى.

ج. الخباز

وهو الفتى الثاني الذي دخل مع يوسف السجن، وهو ما ذكر في قصة الساقي، وصاحب الحلم الذي أخبره فيه يوسف بأن سيصلب وتأكل الطير من رأسه (**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**) [الآية: 41].

ونتوصل إلى أنه أعدم بالدليل العقلي لأن السورة الكريمة لم تنص صراحة على إعدامه، ولكن صدق يوسف في تفسير رؤيا مَن مع هذا الخباز "الساقي" ورؤيا مَن بعدهما "الملك" هو ما يستدل به على إعدامه، وتحقق مبدأ الحياد الذي نعنيه في شخصية الخباز من جهة كونه خرج بمشاهدة واحدة في القصة، لا يتبع فيها غيره ولا يتبعه غيره، وبذلك ما يحقق مبدأ الحياد الذي نعنيه.

رابعًا: شخصيات المراقبين

وهم مجموعات كثيرة من الأشخاص، ذكروا ذكرًا وهـم أكـثر الشخصـيات عـددًا وأقلهـم حضورًا، ولم تسند إليهم مهمات معينة في القصة، ويقعون من حيث مهمات شخصـيات القصـة بين الفئة المحايدة والفئة المكملة، ويضمون أربع فئات هي:

أ. حفدة يعقوب عليه السلام وذرياتهم

فقد كانوا يجالسون يعقوب في محنته، فتارة يصبّرونه، وتارة يلومونه لوم المشفق، وتـارة يستغربون منه شغفه بيوسف، لأن يوسف عندهم في عـداد المـوتى، وفي مـا يـلي المواقـف التـي ذكرتهم القصة فيها ذكرًا:

1. (**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**) [الآيـة: 84] أي بعد سماع يعقوب خبر فقد بنيامين لم يعد يطيق سماع تفاصيل قصـة احتجـازه، فتولى عن بنيه وعمن عنده من الحفده.
2. (**قَالُواْ تَاللـه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**) [الآية: 85].
3. (**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّـدُونِ {94/12} قَالُواْ تَاللـهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**) [الآية: 94] أي قال لمن عنده من الحفـده والحضور.
4. (**قَالُواْ تَاللـهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**) [الآية: 95] أي أنك لا زلـت عنـد آرائـك القديمة، ولا يقصد بالضلال هنا المعنى الذي هو مرادف الجهل، بل يقصـد عـدم معرفة الأمر.
5. (**فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَـمْ أَقُـل لَّكُـمْ إِنِّي أَعْلَـمُ مِنَ اللـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) [الآية: 96] والخطاب هنا موجه لمن عنده من الحفدة والحضور.

ب. كل من كانوا يجالسون يعقوب في المحنة

أشارت الآيات الكريمة بصيغة واحدة للحفدة وجلساء يعقوب عليه السلام، فهم الفئة المستفادة من نص الآيات في الفقرة السابقة[1].

ج. كل من دخل معه على يوسف في مصر عند تكشف الحقائق وهم الحفدة وأهاليهم وأبناؤهم[2].

د. عامة الناس من سكان مدينة العزيز

هذه الفئة يستدل عليها بالعقل، لأن الآيات الكريمة لم تفرد لها نصًا، ولكن امرأة العزيز لما استدعت إلى حفلها النساء الخمس زوجات الشخصيات العاملة في القصر، وخمسًا وثلاثين أخريات من نساء المدينة، ولما دعا الملك إلى اجتماع، وشكل هيئة التحقيق التي ذكرت غير مرة بخصوص الرذيلة كلها أمور ذات دلالة واضحة على تفشي خبر الرذيلة بين الناس.

---

(1) الكشاف، 2/ 504.

(2) تفسير الطبري، 13/ 73.

الفصل الثالث

المعاني العقلية في القصة

وتأويلاتها بقرائن الحال والمقال

الفصل الثالث

المعاني العقلية في القصة

وتأويلاتها بقرائن الحال والمقال

تمهيد:

لقد سايرت القصة مناحي مختلفة كانت تسير فيها جنبًا إلى جنب، بخلاف القصص التقليدية التي تأخذ بمنحى واحد غالبًا، وبغية إحكام النص كانت تربط بين مكوناتها المختلفة بالفصل، والوصل، والالتفاتات الكثيرة بين الضمائر، وأما المعاني العقلية فقد كثرت للأسباب التالية:

1. تراوحت القصة بين الإيجاز والإطناب، فالإيجاز تناسبه النصوص المحذوفة والتي يهتدى إليها بقرائن الحال أو المقال.
2. القصة تخاطب رسولاً أوتي جوامع الكلم
3. وهي من قرآن تحدى الله به فصحاء العرب
4. كانت المعاني العقلية تستبدل ببعض أشياء أعرض عنها النص
5. الإعراض عن تفاصيل محاولات امرأة العزيز في إغواء يوسف والاكتفاء بذكر النتيجة فقط، لأن التفاصيل تفهم عقلاً

وبغية تقدير المعاني العقلية أو النصوص المحذوفة التي يهتدى إليها بقرائن الحال أو المقال، يكفي فقط أن تذكر القصة حدثًا واحدًا لكل من يعقوب ويوسف وإخوة يوسف العشرة خلا بنيامين تقدره مرة كل يوم مضروبًا في أيام وسنيٍّ المحنة الأربعين، نصبح أمام اثني عشر حدثًا في اليوم، وثلاثمائة وستين حدثاً في الشهر وأربعة آلاف وثلاثمائة وعشرين حدثًا في السنة، ومائة واثنين وسبعين ألف وثمانمائة حدث في الأربعين سنة،

هذا إذا لم تكن هناك أحداث لباقي الأشخاص والمكونات الأخرى في النص، ولك أن تقدر حجم القصة لو ذكرت أحداثاً مفصلة لكل الأبطال على مدار أربعين سنة.

هذا ما قصدناه بالمعاني العقلية في القصة، فلا يهتدى إليها إلا بدراسة نصية القصة بما فيها قرائن الحال والمقال وفي ما يلي ذكر المعاني العقلية في قصة يوسف عليه السلام:

1. **(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)** [الآية: 1]. مثل هذه الحروف في مطالع السور فيها إشارة إلى الإعجاز، ويذكر أن سبب النزول أن اليهود سألوا الرسول صلى اللـه عليه وسلم عن قصة يوسف وما حصل له من إخوته فنزلت السورة.
2. **(قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)** [الآية: 5] لسان الحال يقول: إن يعقوب عليه السلام كان يدرك تمامًا مبلغ الغيرة عند أبنائه من يوسف، وإن هذه الرؤيا لو قصها عليهم لزادت الأمر سوءًا، فالمستنتج أنه حذره من إخوته بهذه الآية، لما رأى عليهم من دلالات الغيرة بالقول أو الفعل أو السلوك، ولكن الواضح تمامًا أن يعقوب عليه السلام لم يكن يظن أن الغيرة عند بنيه تبلغ الحد الذي بلغت.
3. **(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)** [الآية: 6] المدرك العقلي في هذه الآية أن يعقوب عليه السلام بشر ولده يوسف بالنبوة، لأن الأنبياء يؤولون الرؤيا.
4. **(إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ)** [الآية: 8] إشارة واضحة وإن لم تذكر التفاصيل إلى أن أخوة يوسف قد اجتمعوا وغاضهم أن أباهم يحب "يوسف وأخاه بنيامين" أكثر منهم ولفظ "يوسف وأخوه" يدل على أنهما من أم، وسائر الأخوة من أم ثانية، وقد تداولوا في هذا الاجتماع أمورًا كثيرة، واتفقوا فيها على أشياء، واختلفوا في واحد، فالخلاص من يوسف مطلب الجميع، ولكن لفظ "قال قائل منهم" فيه دلالة على خلاف مع أحدهم، رجح ابن

عباس أنه يهوذا الابن الأكبر(1) وكان قد أصر على إخوته وأقنعهم باستبدال الإلقاء في البئر من القتل، دون إشارة إلى المدة الزمنية وطرق الإقناع التي مورست مع أبيهم، ويفهم أنهم لم يحصلوا على موافقة أبيهم بذهاب يوسف بسهولة، فالقرآن ذكر نتيجة الأمر وهي موافقة يعقوب ويعلم الله بتفاصيل الموافقة لأنها مدركات عقلية.

5. **(قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)** [الآية:11] حذف المراد الحقيقي وهو أرسله معنا.

6. **(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ {13/12} قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ {14/12})** [الآية:13-14] يفهم أن حديثًا جرى وحوارًا بين الإخوة وأبيهم، تارة يقنعونه وتارة يقنعهم وفي النهاية وافق، ولكن مهما يكن، ففي أقل تقدير إن يعقوب عليه السلام لم يكن مطمئنًا تمامًا في ذهاب ولده يوسف في هذه الرحلة، وإنه قد وافق بتطويع القدر، لا بكلام من درر.

7. **(فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)** [الآية: 15] في لفظ "وأوحينا إليه لتنبئنهم" إشارة إلى ما لاقاه منهم يوسف من قسوة في المعاملة وهم في الطريق، ذكر ذلك الرازي(2) فلما اشتد أذاهم أوحى الله إليه بالخلاص من المحنة وحيًا.

8. **(وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ)** [الآية: 16] يفهم أنهم بعد إلقائه في البئر جلسوا يتداولون الأمر في حيلة يقنعون بها أباهم، وكان أن ذبحوا شاةً ولطخوا قميص يهوذا بدمها، وقد عبر عن سلوك الكذب هذا بـ"بدمٍ كذبٍ" لأن لفظ المصدر أقوى

---

(1) تفسير القرطبي 12/ 164.

(2) تفسير الرازي 18/ 100.

من الفعل في الدلالة على الحدث، فكأن لسان حال الآية يقول: جاءوا بكذبٍ ما بعده كذب.

9. (**وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**) [الآية: 19] من غير إشارة إلى وصف حال يوسف في البئر، فقد كانت له كرحم الأم، كأنما قيل لها: يا بئر كوني دفئًا وسلامًا على يوسف مثلما قال اللـه تعالى للنار التي أضرمت لتحرف جسد جده إبراهيم (**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ {69/21}**) ومن غير إشارة إلى المدة الزمنية التي أمضاها في البئر، وذكر المفسرون أنها ثلاثة أيام.

10. (**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**) [الآية:20] كيف يستوي أن السّيارة وهم المسافرون قد سُرّوا بيوسف ولا سيما الوارد "قال يا بشراي" أي فزت بنعمة جليلة[1] مع البيع بثمن بخس؟"**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ** " وشرى هنا بمعنى باع لأنها من الأضداد وكذلك " **وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ** ".

فالحاصل أن السّيارة تداولوا الأمر في الطريق، وقالوا: لعله عبدٌ هارب من سيده، فيتعرفه ويأخذه، ولا نستفيد منه غير العناء، فاتفقوا على بيعه بأزهد الأسعار، فعبر القرآن الكريم عن كل ما دار بين السّيارة من تداول بـ" **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ** " بذكر النتيجة فقط، لأن كل المداولات مدركات عقلية خلت منها القصة تحقيقًا للإعجاز بالإيجاز.

11. (**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**) [الآية: 21] الذي اشتراه هو عزيز مصر، لم يذكر اسمه في الآية إبقاءً على عنصر التشويق، لأن السامع أول ما يتبادر إلى ذهنه هو السؤال: من الذي اشتراه؟ وفي

---

(1) تفسير الرازي 18/ 105.

لفظ "أكرمي مثواه" دلالة على أن الذي اشتراه قد أعجب به أيما إعجاب، وإن الارتقاء بالوصية إلى هذا الحد غني عن ذكر التفاصيل التي دارت بين العزيز وامرأته عندما قال لها ذلك وغني عن القول: إن العزيز لم يرد أن يكون يوسف في بيته عبدًا بالمفهوم التقليدي للفظ "عبد" فلم يرو أن يوسف قد عامله العزيز معاملة العبد، خلا ما كان منه مكرهًا من أمر التشهير بعقابه قبل دخول السجن جريًا على الظواهر[1] عندما شاع أمر الرذيلة.

12.(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللـهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) [الآية: 23] تحدثنا عن أمر المراودة غير مرة، وفي هذه الآية والله أعلم إعراض عن أمور عقلية كثيرة أبرزها:

1. لم تذكر القصة مجمل الظروف التي وصلت بها امرأة العزيز إلى هذا الطلب
2. لم تذكر الهيئة التي كانت بها وهي الهيئة التي تحقق مدلول "هيت لك" لأن العربية في غنى من مفرداتها ما يمكنها من توصيل المعنى بكل معاني الحشمة، بما لا يخدش الحياء، ودون أن ينقص من المعنى شيء
3. وارت القصة بـ"وراودته" عن سلوكات كثيرة كانت من امرأة العزيز

13.**(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)** [الآية: 24] ذكرنا معنى "همّ" في الفصل الأول وما يعنيه عند الاثنين، فالهم عنده هو حديث النفس بلا رغبة ولا شهوة، بمقتضى الطبيعة البشرية، أما هي فقد همت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم، وبلفظ "همت به وهم بها" وارى به القرآن الكريم سلوكات كثيرة فوق "المراودة" تدرك بالعقل.

(1) البحر المحيط، 5/ 307.

14. (**وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {25/12} قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَـهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَـاذِبِينَ {26/12} وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ {27/12} فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُـدَّ مِـن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ {28/12} يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْـتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**) في هذه الأثناء دخل العزيز، وكان من امرأته أنها رمت يوسف بما كان منها ونفى ذلك يوسف، ثم أنطق الـلـه الطفل الذي في حجرها وهو ابن خالها ببراءة يوسف، فذكرت القصة نتيجة هذا العمل وهو أن العزيز طلب من يوسـف أن يعرض عن هذا، أي لا يبديـه، وطلـب منهـا أن تسـتغفر لـذنبها فالمـدركات العقليـة تقول: إن العزيز لم يكن سعيدًا بهذه الرذيلة وحث يوسف على أن يكتم الخبر أيما حث، مرغبًا أو مرهبًا الـلـه أعلم، وكذلك شأنه مع امرأته وكانـت النتيجـة النهائيـة أنـه وجـه الاثنين بما ذكرنا والـلـه أعلم.

15. (**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّـا لَنَرَاهَـا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**) [الآية:30] الأصل أن يؤنث الفعل "قال" بـ"قالت" لأنـه واجـب التأنيـث فاعله حقيقي التأنيث، وغير مفصول عنه، فلماذا ذكّر الفعل؟

1. إما لأن الفاعل في الأصل "جماعة من النساء" وذكر أنهن "امرأة السـاقي، وامـرأة الحاجب، وامـرأة الخبـاز، وامـرأة صـاحب الـدواب، وامـرأة صـاحب السـجن"[(1)] فالفاعل في هذه الحال اسم جمع حكمه حكم جمع التكسير يجوز تأنيث فعلـه وتذكيره.

---

(1) الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، 2/ 247.

2. وإما لأن هؤلاء النسوة من الذوات، فسد لفظ "نسوة" مسد قوم، ولفظ "قوم" مما يجوز تأنيث فعله وتذكيره للذي ذكرنا في "جماعة" وهن بالفعل نساء لرجال مقربين من الملك.

3. أو لأن القرآن لجأ إلى الكسر الإعرابي للفت الانتباه إلى شيوع رذيلة امرأة العزيز، والكسر الإعرابي يجعل القارئ يفكر ويتدبر في الخروج على القاعدة، ويبحث عن سبب كما بحثنا، مهما يكن فلسان الحال يقول: تسرب الخبر – والله عليم بمن نقله –إلى أوساط أخرى فسمعت النساء المذكورات، وعدد آخر يهم امرأة العزيز أن تصحح لهن الرؤية بطريقتها، والطريقة التي ارتأتها أن تبرر فعلتها ولا تنفيها لأنه لم يعد سبيل إلى نكرانها.

16. **(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ {31/12} قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ {32/12})** [الآية: 31- 32] لقد عبر القرآن بلفظ "مكرهن" عن جميع السلوكات التي كانت من نساء المدينة عندما سمعن الخبر، والمكر المقصود بالآيات هو حديثهن في رذيلة امرأة العزيز لأنه شكل من اشكال المكر، ومطلع الآيات هو نظير قول: "فلما شاع الخبر" وفي هذه الآيات تدعو امرأة العزيز أربعين امرأة من بينهن النساء الخمس من الذوات، إلى حفل تشرح فيه بطريقتها قصتها مع يوسف عليه السلام، فالأولى أن يدور في الاجتماع محاولتها في رجائهن والتودد إليهن بالتوقف عن المكر، ولكن الأمر ينزاح إلى خلاف المتوقع، فتعمدت أن تطلب من يوسف الخروج إليهن وهن منشغلات بتقشير الفاكهة فيقطعن أيديهن بلا شعور لما رأين من جماله، ثم تقول قولة المنتصر: فذلكن الذي لمتنني فيه، أي لا زالت عند طلبها في فعل الرذيلة ثم تتوالى مشاهد الغرابة، فينقلب الأمر في غير صالح يوسف

على النحو الذي يلي في الآية **(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)** [الآية: 33].

القول في فذلكن: في الآيات السابقة لما شعرت امرأة العزيز بأنها انتصرت أمام النساء اللواتي حضرن الحفل، بتقطيع الأيدي وقلن في يوسف ما هذا بشرًا أشارت بـ "ذلكن" بدلاً من "ذلك" لأن فيه دلالة على أن يوسف في هذا الحفل شغف قلب الجميع ولم يعد الأمر مقتصرًا على امرأة العزيز،عندئذٍ يشعر يوسف بازدياد الخطر.

17. **(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)** [الآية: 33]. الآية تشير إلى تمادي المجموعة كاملة في الطلب، فمنهن من تدعوه إلى مضاجعة امراة العزيز، ومنهن من تدعوه إلى نفسها، وهذا مستفاد من لفظ "يدعونني إليه"، وأعرضت الآية عن التفاصيل واكتفت بذكر عنوان الطلب، واللبيب بالإشارة يفهم، ومما يذكر أن القرآن في جميع الألفاظ الجنسية يلجأ إلى الرمز أو الكناية، أو التورية بأساليب مختلفة حسب مقتضى الحال، فالآية تخفي ممارسات كثيرة ومضايقات عرَّضن يوسف لها، حتى تمنى السجن، أليس في ذلك إشارة إلى هذه المضايقات؟

18. **(ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)** [الآية: 35] في حفل امرأة العزيز لا يبدو أن خبر الفاحشة قد توقف، ولا يبدو فيه أن امرأة العزيز حادت إلى صوابها، فالأرجح أن الأمر قد استفحل أكثر حتى سمع بالخبر من لم يسمع في المدينة، وبدأ العزيز ينزعج، ولكن بدا له براءة يوسف، فيتوصل باجتماع مع معاونيه المعبر عنهم بجميع الضمائر في الآية (35) إلى حل توفيقي يسجن فيه يوسف مدة من الزمن تكفي لنسيان الرذيلة، وهذا هو الاجتماع الأول العلني الذي يعقد بخصوص الرذيلة.

19. (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الآية: 36]

والفتيان هما الساقي والخباز، أخبراه بحالهما، وأخبرهما بحاله، فالحال عندهما أنهما سجينان بما اقترفاه من ذنب عند الملك "محاولة سمه"، وقص عليه الساقي حلمه، وأوله يوسف بأن سيعفو عنه الملك ويعود يسقيه خمرًا، أما الخباز فسيصلب وتأكل الطير من رأسه، ثم استثمر يوسف هذين الشخصين في الدعوة إلى اللـه بالبرهان ذاكرًا سلفه من الأنبياء وقصصهم مع أقوامهم وما عبدوا من دون اللـه، وإنه بهذا الإسهاب قد صارحهما بنبوته، وهذه الآيات لم تترك مجالاً للتأويلات العقلية لما فيها من إطناب.

20. (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) [الآية: 42]

يفهم بالاستدلال العقلي أن يوسف عليه السلام قد صارح بأمره هذا الرجل وهو الساقي، وقال اذكرني عند ربك، أي اذكر قصتي عند الملك، ويستدل على أنه أطلق سراحه بعد وقت قصير ونسي أن يخبر الملك، فلبث يوسف بعده سبع سنين في السجن.

21. (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) [الآية: 43]

وهي رؤيا الملك المفزعة، وقد تحدثنا عنها، واكتفت الآيات بالإشارة إلى قلقه عندما استدعى الكهنة والمنجمين وعجزوا عن تأويل الحلم عندئذٍ يتذكر الساقي يوسف في سجنه، ويتذكر تفسيره حلمه من قبل ويطلب من الملك أن يرسله إلى السجن ليقابل يوسف ويأتيه بتأويل الحلم، وفي مثل هذه الحالات لا يستطيع من

مثل الساقي أن يدخل السجن، ويقابل من يشاء إلا بإذن من ذوي الشأن، وهذا هو الأمر العقلي في ذهاب الساقي إلى السجن.

22. **(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {46/12} قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ {47/12} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ {48/12} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ {49/12})** [الآية: 46-49]

فسر يوسف حلم الملك كما ذكرنا في الفصل الأول وقد أطنب في تفسيره الرؤيا لسببين هما:

1. الملك في حالة قلق وترقب، يحتاج إلى دقة وتفاصيل، وهذا مما لا يناسبه الإيجاز، لا بل يزيده قلقًا.
2. إنها فرصة يوسف في بيان صورته الحقيقية

23. **(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)** [الآية: 50]

أي استحسن الملك تفسير الحلم ثم قال ائتوني به.

24. **(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)** [الآية: 51] وهي وقائع جلسة هيئة التحقيق التي شكلها الملك، لما عاد الساقي إليه حاملاً طلب يوسف في أن يسأل عن أمر النساء اللائي قطعن أيديهن كي يكون خروج يوسف من السجن حقًا لا عفوًا تعلن فيه براءته والآيات تظهر النتائج العقلية التي تمخض عنها الاجتماع الثاني وهي:

1. تبرئة يوسف عليه السلام

2. إدانة امرأة العزيز

3. إدانة صويحباتها

4. إعلان توبة امرأة العزيز وصويحباتها، " **الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ** " **قُلْنَ حَاشَ لـلـهِ** "

25. (**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَـدَيْنَا مِكِـينٌ أَمِـينٌ**) [الآية: 54] وفيها ندم الملك على سجنه يوسف، ويكافئه بتوليه منصب وزير المالية، وهو المستفاد من "استخلصه لنفسي" وبعد ذلك يختفي الملك من مسرح الأحداث.

26. (**وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِـرُونَ**) [الآيـة: 58] هـذه الآيـة تعود على أحداث جرت في أرض كنعـان، أدت إلى أن يعـود إخـوة يوسـف إلى مصر، وفي هذه الآية معنيان عقليان، الأول سابق وهو ما ذكر، والثاني لاحق يستفاد من لفظ "ولما جهزهم بجهازهم".

27. (**وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِـيكُمْ أَلاَ تَـرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْـلَ وَأَنَـاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**) [الآية: 59] تم الربط بين الآيتـين بكـمال الانقطـاع بلفـظ "ولمـا جهـزهم" لكمال إبهام سبب القدوم في الآية السابقة.

28. (**وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) [الآية: 62] وذكر لهم السبب مخافة أن يظن الفتيان بالملك سوءًا

29. (**فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِـلْ مَعَنَـا أَخَانَـا نَكْتَـلْ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَافِظُونَ**) [الآية: 63] هذه الآية تحكي أحداث الآية 11، فالذي دار بينهم وبين أبيهم في الآية 11 في طلبهم اصطحاب يوسف، هو نفسه الـذي دار بيـنهم في اصـطحاب بنيـامين، بفارق أن الحجة صحيحة في هذه الآية.

30. (**قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ الـلـهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُـمْ فَلَـمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ الـلـهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**)[الآية: 66]

في الآية دلالة عقلية على أمرين:

1. في هذه الآية كان يعقوب عليه السلام أكثر تشددًا في موقفه من المرة الأولى
2. شرح لأبنائه أحكام الحلال والحرام المتعلقة بالمواثيق، ووضعهم أمام مسؤولية دينية وأخلاقية واجتماعية في اصطحاب بنيامين

31. (**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**) [الآية: 67] أي أنه خاف على أبنائه من العين والحسد.

32. (**وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**) [الآية: 68] في لفظ "لما" وهي ظرفية تفيد معنى الشرط، على تقدير ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم وجدوا كذا وكذا، أي وجدوا ما حذرهم منه أبوهم من أمر العين والحسد صحيحًا، لأنهم كلهم كانوا على قدر كبير من الجمال إلا ما كان من زيادة عند يوسف.

33. (**وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) [الآية: 69] دون إشارة إلى أحداث تمت في الفاصل الزمني ما بين دخولهم مصر عامة ودخولهم مكان إقامة يوسف خاصة، وفي لفظ "فلا تبتئس بما كانوا يعملون" إعراض عن ذكر ما دار بين يوسف وأخيه من كلام تأويله أنه شرح تفاصيل كيدهم.

34. (**فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**) [الآية: 70] النص المحذوف أن يوسف أخبر بنيامين السبب في احتجازه الظاهري في الليلة السابقة التي قضاها في حجره.

35. (قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ {71/12} قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ {72/12} قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ {73/12} قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ {74/12} قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ {75/12} فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ {76/12} قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ {77/12} قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {78/12} قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ {79/12} فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {80/12} ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ {81/12} وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {82/12})

في هذه الآيات ذكر مطنب لأمر في ظاهره أن بنيامين قد سرق "صواع الملك" ووضعه في رحله، وفي باطنه أن يوسف عليه السلام قد اجتهد في إيهام إخوته بذلك لأنه هو الذي وضع السقاية وهي صاع الملك "صاع من ذهب مرصع بالجواهر" في رحل أخيه بنيامين، ثم دار جدل في ذلك كثير، وانتهت الأمور باحتجاز بنيامين للذي بدا في ظاهر الأمر، وروت الآيات تفاصيل كثيرة لهذه الحادثة ذكرت في شرحنا أحداث القصة في الفصل الأول، وعادة لا تكون نصوص محذوفة مع الإطناب لأن ذلك يتنافى مع الإعجاز بالإطناب.

وأما أمر احتجاز بنيامين فإنا نجتهد به كما اجتهد غيرنا، وفيه نقول: ظاهر ما قام به يوسف عليه السلام أنه عقوبة لإخوته وباطن الأمر أن ما قام موعظة لهم، هذا والله أعلم.

36. **(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللـهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** {83/12} **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** {84/12} **قَالُواْ تَاللـه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ** {85/12} **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللـهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)** أخفي في النص تساؤلات كثيرة من يعقوب عليه السلام، لأنه وقع في محنة ثانية، وغاية هذه التساؤلات أنه غير مقتنع بهذه الرواية، ولكن نحن الذين نسأل: روايتهم صحيحة، فلماذا لم يقتنع بها يعقوب عليه السلام؟ من هنا نلجأ إلى التأويل على نحو مما يلي:

1. في قولهم: "إن ابنك سرق" إخفاء تفاصيل السرقة بقصد أو بدون قصد اللـه أعلم
2. الشخص الذي احتجز بنيامين مجهول لديهم من حيث النسب ومعلوم من حيث المنصب (**قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ**).

فلو أدلوا بالتفاصيل لكان ذلك أدعى إلى سكينة يعقوب عليه السلام، فبهذا يبدو الأمر في ظاهره أنهم كاذبون لأن تاريخهم السابق لا يشفع لهم، ولأنهم لم يكونوا قادرين على جلاء الأمر لأبيهم بالطريقة التي يفهمها الأنبياء.

37. **(يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللـهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللـهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)** [الآية: 87] أي فلما تمالك يعقوب نفسه، لأنه في الموقف السابق تولى عنهم من الحزن، وفي لفظ "ابيضت عيناه" إعراض عن ذكر المدة الزمنية ما بين تلقيه فاجعة فقده بنيامين، وفقده بصره أو عشيه.

38. (**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللـهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**) [الآية: 88] هنا الاستجداء بعينه (**وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللـهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**) وتختفي وراء هذا اللفظ عبارات الاسترقاق والاستمالة والاستعطاف التي يتقنها ذوو الحوائج، وأعرض عنها القرآن، وكأن لسان الحال في " **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ** ..." يقول: حزنت عليكم ولكن هل نسيتم أمركم مع يوسف؟ ثم يكشف يوسف صراحة عن نفسه وأخيه، ولسان الحال يقص عليهم أمره بالطريقة التي يرتئيها الأنبياء، يبدون أو يخفون من الأمر ما يرون أنه مناسب، وكذلك أبدوا الندم على ما فات بـ (**قَالُواْ تَاللـهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللـهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ**) [الآية: 91] ومن المسلمات أنهم قالوا من كلام الندم والأسف فوق ذلك وبلفظ (**اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ**) [الآية: 93] يفهم ما يلي:

1.أنه أخبر بحال أبيه فقد بصره أو عشي

2.أن مصيبته انتقلت إلى عموم الأهل، وإن كانت على درجات

3.أنه يتبوَّأ مكانة رفيعة بمصر

39. (**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**) [الآية: 94] والكلام مقدر بـ"رجعوا إلى أبيهم" ثم النص الصريح، وهو متن الآية، وفي لفظ (**قَالُواْ تَاللـهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**) [الآية: 95] إشارة إلى أنه لحظة شمّ ريح يوسف كان يعقوب عليه السلام جالسًا بين أهله وحفدته ولفظ "فلما أن جاء البشير" يعود على كلام مقدر بـ"كثر الكلام عن أمر يوسف، وأمر هذه الريح" هم يستغربون، وهو يؤكد، وفي هذه الأثناء جاء القول الفصل وهو بشرى انتهاء محنة

يوسف صراحةً بـ"فلما أن جاء البشير" ثـم يطلبـون الاسـتغفار، ويتحـين يعقـوب أقـرب وقت من الأوقات التي يستجاب فيها الدعاء، قيل: تحيُّن حلول يوم الجمعة.

40. (**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ {99/12} وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {100/12} رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ {101/12}**)

[الآية:99- 101] وهي نهاية القصة، وفي هذه الآيـات إشـارة مـوجزة إلى أشـبه مـا يكـون بتتويج القائد أو البطل بما يليق به بحسب سيرته في ما قبل التتـويج، فمرحلـة التتـويج هذه فيها ذكر موجز لما كان من أمر البطل قبل التتويج حتى استدعى التتـويج، وفي مـا يلي أبرز وقائع حفل التتويج:

1. البدء بالسلام على أبويه جريًا على الأصل
2. التعبير عن احترام والديه وحـبهما، رفعهـما إلى كـرسي الملـك، وهـو المعـبر عنـه بلفـظ "العرش"
3. نسبة كل ما قام به إخوته إلى الشيطان ولم يذكر تفاصيل البئر بداية المحـن الحقيقيـة إبقاءً على ماء وجوههم
4. نسبة كل الأعمال التي وفق بها إلى تقدير المولى العزيز وأما الإيجـاز في هـذه الآيـات، وهو مدخلنا ومدخل غيرنا في تأويل النصوص العقلية فقد جـاء عـلى الأصـل للأسـباب التالية:

أ- المخاطب في الأصل وهو الرسول صلى اللـه عليه وسلم، تهمه الآن نتائج الأحداث.

ب-حفل التتويج فيه إعلان فرح ونشوة بالنصر، وتفريج المحن، ليس هو المكان الأنسب لنبش الماضي.

ج-تحقق ليوسف توبة إخوته وصلاحهم وذلك غاية لديه فلماذا اللجوء بعد ذلك إلى تصفح تاريخهم؟

د- مارس السلوك الذي يليق بالأنبياء من كرم خلق، وتسامح وتواضع

41. (**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**) [الآية: 111] عودة أحداث السورة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد انتهاء أحداث القصة مشيرة بلفظ "ذلك" إلى أحد أمرين:

1. إما إلى عموم الأحداث التي ساقتها القصة
2. وإما إلى بؤرة الأحداث وهي كيد أخوة يوسف بأخيهم وهذه الآيات قامت على منهجين بلاغيين هما:

أ. حسن التخلص، (**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**) [الآية: 103] فالناس هم الناس وهذه طبعائهم سواءٌ أكانوا قومك أم أقوام غيرك، وقد وصف الناس في الآيات من 102- 104 بطبائع مشتركة في سلوكاتهم مع انبياء الله.

ب. الالتفات إلى المخاطب بأسلوب الأمر الدال على الإرشاد(**قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) [الآية: 108] أي أبلغهم سبل الرشاد وأنك ومن تبعك على الحق المبين ثم عودة سريعة لتضع خاتمة السورة بما يناسب خاتمة القصة بالتأكيد مرة أخرى على مصداقية كل الأحداث لأنها من عند الله لا من عند أحد.

الفصل الرابع

رؤية فنية في نثر القصة

تمهيد

أولاً: الوحدة العضوية في قصة يوسف

ثانيًا: الوحدة العضوية في الأعمال الأدبية

ثالثًا: غرائب القصة

رابعًا: أسرار القصة

خامسًا: موازنة نقدية بين قصة يوسف والقصص التقليدية

الخاتمة والدروس المستفادة من قصة يوسف

الفصل الرابع

رؤية فنية في نثر القصة

تمهيد:

تعتبر قصة يوسف من الناحية الفنية في بنية القصة واحدة من القصص القرآنية الطويلة، وهي الوحيدة التي وردت أحداثها كاملة في مكان واحد من القرآن الكريم.

وقد ذكرت تعريفات كثيرة للقصة الطويلة عند الروائيين والتعريف الذي ارتأيناه في دراستنا، ما قاله محمد شدّاد: "وهي التي تتناول قطاعًا كبيرًا من الحياة، وتشغل حيزًا واسعًا من الزمان والمكان، وتعنى برسم الشخصيات وإبراز سماتها وملامحها وتصور الخواطر والانفعالات وتذكر الأحداث مترابطة، وتعتمد في طريقة التعبير على الهدوء والاتصال، وفي سرد الحوادث على الترابط والتفصيل"[1].

وتعتبر قصة يوسف واحدة من هذا النوع من القصص، حيث يتوافر لها كل مقومات الرواية، وهي تستغرق معظم سورة يوسف، فقد برزت السورة بمقدمة تمهد للقصة، وتنتهي بتعقيبات بحسب الحال، مركزة على العبرة منها، وتمر القصة بتوجهات قرآنية، فهذا التمهيد، والتوجيهات والتعقيبات، تؤلف وحدة متكاملة، وتعالج موضوعًا رئيسًا واحدًا هو موضوع الإيمان، وما يتصل به في واقع الحياة الإنسانية من سلوكات، وسنرى في هذا الفصل مقومات الوحدة العضوية في سورة يوسف ومدى انطباقها على المفهوم الفني للوحدة العضوية.

---

(1) شدَّاد، محمد، منهج القصة في القرآن، شركة عكاظ للنشر والتوزيع، ط1، 1404 هـ_ 1984، 48.

أولاً: الوحدة العضوية في قصة يوسف

الوحدة العضوية في المفهوم النقدي

الموضوع الرئيس في القصة هو الإيمان، وتتحقق فيه الوحدة العضوية من حيث كونه مترابطًا، لا من حيث إنه الوحيد، ففي القصة جوانب تربوية، وإدارية، وأمنية، ومبادئ في علم النفس والاجتماع كلها تسير بمحاور واتجاهات مختلفة تصب في معين واحد، وفي ما يلي أبرز مقومات الوحدة العضوية في قصة يوسف من حيث موضوعها الرئيس وهو الإيمان، وذكر أهم مكوناته:

1. الإيمان بالوحي والرسالة

فالقصة لم تكن معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم، أو لأهل الكتاب بهذه التفصيلات الدقيقة (**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**) [الآية:3] فهي تغرس في نفس المؤمن جانب الإيمان بالغيب.

2. عرضت القصة سلسلة من الشدائد والمحن

فمن كيد الإخوة، إلى الجب، ثم البيع والاسترقاق، والغربة وفراق الأهل والوطن، والاتهام بالباطل، والسجن، فما حكمة هذا الابتلاء؟ فلماذا يقاسي يوسف كل تلك الأهوال؟ وهو المؤمن الصبور الورع، فكل ذلك لترسيخ الإيمان في نفسه، وفي نفوس المؤمنين.

3. بعد هذه المنخفضات في حياة يوسف يتبّوأ في مصر أرقى المناصب

ويدين له بالولاء من أذله بالسجن، ويعترف بعفته من كُنّ سببًا في سجنه، وهذا كله يكمل المسارات المأسوية، ويلتقي معها في اتجاه واحد هو ترسيخ الإيمان، على ما فيه من التناقضات في الظاهر بين هذه المسارات.

4. الجانب الرمزي في القصة

القصة تخاطب بالرمز والإيحاء الجماعة المستضعفة في مكة وتقول لهم: انظروا إلى مصير هذا الإنسان الصابر المجاهد، الذي فوض أمره إلى الله، وأبشروا بالنصر القريب، وتقول للرسول صلى الله عليه وسلم انظر إلى نبي مثلك كيف تدرجت به المصاعب والأهوال، وكيف تلقى ذلك بصبر الأنبياء وعزيمتهم، وخرج في النهاية منتصرًا مرفوع الهامة، ولا بد من أن تحقق في قومك في النهاية النصر الذي حققه هذا النبي الصابر المثابر.

5. الإيمان بنصر الله

ونصر الله هو نتيجة ضمنية لمجريات الأحداث التي مر بها يوسف، فما استكان ولا ضعفت عزيمته، لأنه ينظر إلى النهاية نظرة الواثق بالله (**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**) [الآية: 110]

6. الإيمان بالغيب

في القصة تحقيق لثلاث رؤى هي:

أ. رؤيا يوسف في أول القصة

ب. رؤيا صاحبيه في السجن

ج. رؤيا الملك

وهناك من الدارسين من ذهب في الاعتقاد إلى أن هذه الرؤى تتناسب مع الأجواء النفسية في القصة[1].

7. الإيمان بالخوارق

والخوارق التي وردت في القصة أيضًا ثلاث هي:

---

(1) شديد، محمد، منهج القصة في القرآن، ص50.

1. نطق الطفل الذي كان في حجر امرأة العزيز (**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ**) [الآية: 26].

2. شمَّ يعقوب رائحة قميص يوسف من مسيرة ثمان ليالي (**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**) [الآية: 94].

3.ألقي قميص يوسف على وجه أبيه فارتد له بصره (**اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ**) [الآية: 93].

فالقصة من حيث الموضوع الرئيس وهو الإيمان، لا شك أنها حققت الوحدة العضوية، ولكن هل الإيمان هو الموضوع الوحيد الذي دارت حوله السورة؟! بدون شك لا، فالقصة تخالف النظرية البنائية في النقد من جهتين:

1. تتسم القصة في القرآن بالبؤر المتنقلة[1]، وهي مجموعة أحداث تدور حول مركز ما، أو غرض رئيس، ثم يتم الانتقال بمكونات أخرى حول مركز آخر وهكذا، في حين تلتزم الوحدة الموضوعية في الأعمال الأدبية بموضوع واحد سميت من أجله وحدة الموضوع، أو الوحدة العضوية، وأما في قصة يوسف، وإن ظل يوسف محافظًا على المركز وصدارة الأحداث، فيعقوب كذلك يصلح لأن يكون مركزًا آخر لأحداث القصة لأنه كان يقوم بدور إدارة الأزمات والأحداث، وقام بهذا الدور الملك عندما شكل هيئة التحقيق.

2. القصة طرقت موضوعات عديدة من مثل: الإيمان بالغيب، والإيمان بالمعجزات، الصبر مع الفرج، وسايرت أحداثًا كانت تربط بينها بوجوه بلاغية مختلفة، في حين تعجز القصص التقليدية عن نسج أحداث ذات موضوعات متعددة، لأن الأمر ببساطة يرجع إلى أن أحداث قصة يوسف مطبوعة من لدن حكيم خبير، بينما

---

(1) هذا المصطلح خاص بالمؤلف.

أحـداث القصـص الأخـرى ربمـا جـاءت مطبوعـة أو مصـنوعة، فالقـاص أو الـراوي لمـاذا يتحدث عن موضوعات متشعبة في قصة واحدة؟ وما الـذي يمنعـه مـن تخصـيص قصـة لكل موضع يريد؟ لأنه ليس أمام تشريعات وأحكام سماوية، هو أمام موضـوع يريـد أن يعالجه، فيفتعل له الأحداث، ويختلق له الأشـخاص، ويسـير الأحـداث، ويختـار الأزمنـة والأمكنة بحسب ما يناسب الغرض، فهو ينسج نسجًا، ولا يغيـب عـن البـال أن الجانـب الديني يلعب دوره ،هذا عن مقومـات الوحـدة العضـوية في سـورة يوسـف مـن حيـث كونها تحدثت عن موضوع الإيمان، أمـا مـن حيـث إنهـا سـلكت نهجًـا آخـر في معالجـة موضوعات مختلفة ففي ما يلي أبرز محاور القصة كاملة:

أ. الرؤيا: كان يعقوب عليه السلام يـؤثر بنيـه يوسـف وبنيـامين بمحبتـه عـلى سـائر بنيـه، والراجح أن ذلك –والـلـه أعلم بهوى القلوب- راجع إلى وفاة أمهما وهما صـغيران، وقـد ذكرنا أن يوسف عليه السلام قد قضى جانبًا من طفولته عند عمته ابنة إسحاق، وهو مـا يؤكد وفاة أمه وهـو طفـل، فـأراد يعقـوب أن يعـوّض الاثنـين بالجانـب المسـتطاع مـن العطف والحنان عن فقد الأم، لكن هذه الرسـالة لم يـدركها إخـوة يوسـف كـما أرادهـا يعقوب، فكان من أمرهم ما كان، وزاد الأمر تعقيدًا رؤيا يوسـف، ونهـاه يعقـوب عليـه السلام عن قص هذه الرؤيا على إخوته لما رأى فيهم من سلوك الغيرة التي تؤدي في كثير من الأحيان إلى المكيدة بمن يُغار منه، وتنبّـأ لـه بـالنبوة بـدليل (**وَكَـذَلِكَ يَجْتَبِيـكَ رَبُّـكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**) [الآية: 6].

ب. المؤامرة على يوسف: وقد ذكـر عفيـف عبـد الفتـاح طبَّـارة أن يعقـوب عليـه السـلام في مرحلـة مـا مـن مراحـل غـيرة إخـوة يوسـف قـد أبعـده عـنهم[1]، وهـذا مـا يؤكـد (**قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ**) [الآية: 11]، وتوددوا إلى أبيهم بطلـب ذهـاب

(1) طبّارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ط19، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، 1996، 159.

يوسف في رحلة معهم، ثم أبدى حجة الذئب، ووافق في النهاية وذهب يوسف مع إخوته، ويذكر أنهم اتفقوا على مبدأ الخلاص من يوسف، واختلفوا في الطريقة، ثم أخضعهم يهوذا لحل توافقي يقتصر على الإلقاء في البئر، وهي مكيدة أخف من القتل.

ج. **الإلقاء في البئر:** أذن يعقوب لبنيه باصطحاب يوسف معهم، ثم ألقي في البئر بحسب الخطة، وحينئذ ألقى الله في نفس يوسف الأمن والطمأنينة بأنه سيخلصه وسوف يأتي اليوم الذي يخبر إخوته بما فعلوه، وأمر البئر أن تكون دفئًا وسلامًا على يوسف، مثلما أمر النار من قبل أن تكون بردًا وسلامًا على جده إبراهيم عليهما السلام.

د. **إنقاذ يوسف من البئر وبيعه إلى العزيز:** قال المفسرون مكث في البئر ثلاثة أيام[1]، ثم التقطه بعض السيارة وسُروا به بادئ الأمر "قال يا بشراي" لكنهم زهدوا فيه في النهاية خشية أن يدركه أهله أو سيده إن كان مملوكًا فينتزع منهم (**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**) [الآية: 20].

هـ. **امرأة العزيز:** وقد تدرجت في مراحل إغوائه من المراودة إلى الهمّ، ثم استدعت صويحباتها إلى حفل وقصت أمرها، وانزاح الأمر إلى ما هو أغرب من مراودتها أو (**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**) [الآية :24]، لتكون المضاجعة مطلب الجميع، بل وراحت كل واحدة منهن تدعوه إلى نفسها وهو ما يفسر(**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**) [الآية: 33].

---

(1) الكشاف، 448/2.

و. يوسف وصويحبات امرأة العزيز: وتعتبر قصة صويحبات امرأة العزيز أمرًا مكملاً لمكيدتها على النحو الذي رأينا.

ز. مرحلة السجن: وكانت بسبب تفشي رذيلة امرأة العزيز، ويقصد منها درء الشبهة حفاظًا على المظاهر كما قال المفسرون[1]، ولم يكن العزيز مقتنعًا بسجن يوسف، لكنه رأى أن السجن خير سبيل لكف الألسن ووضع حد لانتشار الرذيلة.

ح. الدعوة إلى عبادة الله: وقد قام يوسف بهذه الدعوة وهو في السجن، وأبرز ما تم في هذه المرحلة تفسيره حلم الساقي والخباز، ورأى في السجن مكانًا أكثر ملائمة للدعوة إلى ربه، لأن حياته كانت في القصر إما حياة المملوك، وإما حياة الفتنة مع امرأة العزيز وصويحباتها، وفي كلتا الحالتين لا سبيل إلى الدعوة إلى الله.

ط. رؤيا الملك: (**وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**) [الآية: 43]، هذه الرؤيا المفزعة كانت سببًا في خلاص يوسف من السجن، لأن الملك استدعى على أثرها الكهنة والمنجمين وعجزوا عن تفسيرها (**قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ**) [الآية: 44].

ي. الساقي: وقيل هو رئيس السقاة[2]، وكان هذا الفتى والخباز مع يوسف في السجن، ثم قصّا عليه رؤيا وطلبا منه تأويلها (**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**) [الآية:36]. وأوّل يوسف رؤياهما على أن الأول وهو الساقي سيطلق سراحه ويعود إلى سابق عهده عند الملك في سقياه

(1) تفسير الظلال، 231/2 مرجع سابق.

(2) طبّارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص171 مرجع سابق.

خمرًا، وأما الثاني فسيعدمه الملك، وهو ما تم بالفعل، ذكرنا ذلك في تفسير السورة، ولما كان من حلم الملك ما كان تذكر هذا الفتى يوسف وتفسيره الصادق، وتذكر أنه نسي أن يذكر أمام الملك قصة يوسف وسجنه مدة سبع سنين، فاقتنص الساقي هذه المناسبة وطلب من الملك أن يذهب إلى السجن لأن في السجن فتى يفسر الأحلام، ولم يذكر الساقي يوسف بالاسم خشية أن يخذل، ولما اجتمع الساقي بيوسف في زيارته إلى السجن أخبره برؤيا الملك وقد فسر يوسف هذه الرؤيا على النحو الذي ذكرناه في الفصل الأول وعندئذ كانت هذه المناسبة البداية الحقيقية لخروج يوسف من السجن.

ك. **تفسير رؤيا الملك:** وقد فسر يوسف رؤيا الملك بأنه يتوجب زراعة سبع سنين متواليات، ثم يذروا الحب في سنبله مخافة التسوس إلا ما يخصص للأكل، لأنه ستأتي بعد ذلك سبع سنين قحط تذهب ما خزّنه الناس، وفي السنة الثامنة تأتي سنة خير يغاث فيها الناس(**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ {47/12} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ {48/12} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ {49/12})**

ل. **هيئة التحقيق:** وبعد أن فسر يوسف هذا الحلم زال كابوس الملك، وطلب إخراج يوسف من السجن، ويرفض يوسف إلا أن يعلم الملك بحال مكيدة امرأته وصويحباتها، ويستجيب الملك لطلبه، ويشكل هيئة تحقيق تخلص إلى تبرئة يوسف وإدانة امرأة العزيز وصويحباتها.

م. **تنصيب يوسف وزيرًا للمالية:** وهي نتيجة حتمية لتبعات هيئة التحقيق، تبرز كرم الملك وموضوعيته ونزاهته في التحقيق، فوضع الأمور في نصابها، وأعطى كل ذي حق حقه.

ن. **إخوة يوسف في مصر يبحثون عن الميرة:** وكان وصولهم في السنين السبع المجدبات، لأن يوسف أحسن تدبيرهن وخزن ما يكفي من الميرة، وقد قدم إخوته

عدا بنيامين من أرض كنعان وهي لا زالت قحطًا، باحثين عـن المـيرة، ولكـن العيـون لما رأت جمعهم شكّت في أمرهم وجاؤا بهم إلى يوسف كي يحقق في أمرهم لأنه كان الوزير المسؤول عن مثل هذه الشؤون، فعرفهم وهم له منكرون، وكان حينئذٍ قـد تغـير اسـمه إلى "صفنات فعينع"[1]، وهو اسم أطلقه عليه ملك مصر ويعني طعام الحياة تكريمًـا لـه على إنقاذ مصر من محنة المجاعـة، ثـم أكـرمهم وبـاتوا عنـده تلـك الليلـة، وفي الصـباح جهزهم بجهازهم ووضع بضاعتهم التي جـاؤا بهـا في رحـالهم كي يعـودوا إذا انقلبـوا إلى أهلهم وطلب مـنهم إحضـار بنيـامين في المـرة القادمـة وإلا فـلا كيـل لهـم في مصر، ولا يقربونها بعد هذه المرة.

س. **طلب اصطحاب بنيامين**: وذكر شرط يوسف في الميرة، وفي هذه المرحلة يصـبح إخـوة يوسف في حرج من أمرهم، فكيف يطلبون بنيامين من أبيهم وجرح يوسـف لم ينـدمل؟ وما ضمانه على سلامته لو وافق؟ وهل يضمنون له الأمن حتى لو كانوا صـادقين؟ وهـل يسـتطيعون دخـول مصر مـن دونـه؟ لأن شرط يوسـف في **دخـولهم مصر أن يكـون معهـم** بنيامين، تلك أسئلة طرحها إخوة يوسف على أنفسهم تفهم من لسان الحال، وفي النهاية وافـق يعقوب على ذهاب بنيامين معهم بميثاق، وتطويع قدر وكل واحد منهم بدا خائفًا يترقب.

ع. **احتجاز بنيامين**: وتم ذلـك بتـدبير أمـر اجتهـد بـه يوسـف كي يلقـن إخوتـه درسًـا فعندما وصـل إخوتـه مصر للمـرة الثانيـة جهـزهم بجهـازهم، ولا زالـوا لا يعرفونـه، ووضع السقاية في رحل بنيامين، وهي "صـواع الملـك" ونـادى مسـتخدمو يوسـف أن القوم سرقوا "صواع الملـك" ولمـا فتشـت رحـالهم وجـدت السـقاية في رحـل بنيـامين فاحتجزه يوسف لديه، لأن شريعتهم المستمدة من شرع يعقوب تقوم عـلى احتجـاز السـارق ثمنًـا لمـا سرق، ورجـوه أن يطلـق سراح بنيـامين وأن يأخـذ واحـدًا مكانـه

(1) طبارة، عبد الفتاح، مع الأنبياء، ص175.

يختاره منهم، لكنه رفض وعادوا إلى أرض كنعان بلا بنيامين، يكادون يتفطرون خجلاً وحزنًا.

ف. **يعقوب يتلقى الصدمة الثانية:** أشارت القصة بالعقل إلى أنهم سيعودون إلى أرض كنعان بلا بنيامين، كما عادوا قبل أربعين عامًا من رحلة الصيد بلا يوسف الذي أكله الكذب، وهنا تكتمل مصيبة يعقوب ويبكي حتى يفقد بصره ولما ذهب عنه الروع تمالك نفسه وطلب منهم العودة باحثين عن الاثنين بلا ملل.

ص. **عودة الإخوة للمرة الثالثة إلى مصر طلبًا للميرة وبحثًا عن بنيامين:** وفي هذه المرحلة يدخلون على يوسف في مجلسه ويكررون الرجاء في الميرة ثم يكشف لهم عن نفسه ويطمئنهم عن بنيامين، ويعترفون له صراحة بالذنب، ويبادرهم بالصفح ويطلب منهم العودة إلى أرض كنعان بالبشرى وإحضار أبيه كي تكتمل الفرحة.

ق. **وصول الإخوة إلى أرض كنعان حاملين البشرى:** وقبل وصولهم يشعر يعقوب شعورًا خفيًا بقرب اجتماعه بيوسف فأخبر أهله وأحفاده بذلك (**لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**) [الآية: 94]، وفي هذه الأثناء تصل العير ويلقي يهوذا الابن الأكبر قميص يوسف على وجه أبيه فيرتد له بصره، ثم يتجهز بالحال مع ذريته للسفر إلى مصر.

ر. **وصول ذرية يعقوب إلى مصر ومراسم التتويج:** وصلت أسرة يعقوب إلى مصر، واستقبلهم يوسف، وضم إليه أبويه، وأنزلهما منزلة كريمة وطلب منهما ومن أهله أن يقيموا في مصر آمنين سالمين بإذن الله، ثم رفع أبويه على كرسي الملك وحمد الله وشكره على هذه النعمة، وحياه الأهل بتحية مألوفة عندهم تقوم على الانحناء، ثم ذكر أباه بحلمه قبل أربعين سنة(**وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**) [الآية: 100], وذكر

للحضور مناحي نعمة اللـه عليه في هذه الرحلة ولم يقف عند قصة إخوتـه استشـعارًا للحرج، وهذه آخر مشاهد القصة.

ثانيًا: الوحدة العضوية في الأعمال الأدبية

أولى النقاد المعاصرون موضوع الوحدة العضوية في العمل الأدبي قدرًا كبيرًا من الاهتمام، حتى غدت معيار جودة في العمل الأدبي، إلى جانب معـايير أخـرى بحسـب نـوع العمـل الأدبي، فكاتب العصر من ناظم أو ناثر أصبحت لديه هذه الثقافة، وبـات حريصًـا عـلى تلبيـة رغبـات القارئ، وموازين الناقد، ونحن في ظلال قصة يوسف نطـرح سـؤالين عـلى هـذا الميـزان النقـدي بغية أن نضع قصة يوسف في مكانها في النقد.

السؤال الأول: في أدبنا العربي القديم ولا سـيما الشـعر الجـاهلي وخاصـة المعلقـات لم يكـن ملتزمًا بالوحدة العضوية، فهل أفسد ذلك على هذه المعلقات قيمتها الأدبية؟

السؤال الثاني: في قصة يوسف، كـان موضـوعها الـرئيس هـو الإيمـان إلى جانـب موضـوعات عديدة في شبكة عنقودية، مع اكتمال مكونات النص التي ترسخ الإيمان في نفوسنا، فهـل قرأنا قصه أجمل وأمتع منها في حياتنا تشكلت فيها وحدة عضوية أم لم تتشكل؟!

فـنحن لا نريـد أن ننفـي عـن الوحـدة العضـوية معيـار جـودة، ولكننـا نريـد أن نقول بوضوح إن القرآن في نسيجه القصصي يراعـي أحكامًـا شرعيـة، تـأتي عـلى شـكل قصـة أو لا تأتي، هذا شأن آخر، وأما قصـة يوسـف، فلأنهـا الوحيـدة التـي جـاءت أحـداثها كاملـة في القرآن الكريم فقـد كانـت محققـة لكـل مقومـات العمـل القصـصي، بـل وأعجـزت كـل القصاصين أو الروائيين عن أن يأتوا بمثلها، لأنها مطبوعة من جهـة، ومـن لـدن حكـيم خبـير من جهة أخرى، فعندما نتحدث عـن الوحـدة العضـوية في القصـص القـرآني أولى أن نحـدد القصة القرآنيـة قبـل أن نحكـم، فبـالنظر إلى أن قصـة يوسـف هـي الوحيـدة التـي جـاءت أحداثها كاملة، فإنا نستطيع الحكم بوجود أو عدم وجـود وحـدة عضـوية، لأننـا أمـام نـص كامل ولكن كيف لـو كـان الأمـر يتعلـق بقصـة نـوح، أو صـالح، أو هـود مـثلاً فهـل وردت

قصصهم في مكان واحد من القرآن الكريم؟ لكل هذه الاعتبارات أردت أن أشير إلى أن الوحدة العضوية في قصص القرآن الكريم لها خصوصية مختلفة لا تجعلها تخضع لموازين النقد، أو قل إنها فوق كل هذه الاعتبارات.

ثالثًا: غرائب القصة

أ. امرأة تغتصب الرجال

قال تعالى: (**وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**) [الآية: 32] وأي غريب أغرب من هذا؟

فائدة: "هذه الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي أكدت بالنونين نون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الخفيفة"، والأصل في "يكونًا" هو يكونَنْ، أطلقت النون ألفًا، ثم قُيِّدت بالتنوين وهو ما يعرف بتنوين الترنم، وتنوين الترنم والتنوين الغالي خصوصية فعل، وهو نوع من التوكيد الصوتي، وهذا التوكيد في اللغة لا زال في مهده، وفي ما يلي مجمل ما كان من امرأة العزيز من سلوكات تحقق معنى الغرابة في الآية

1. (**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) [الآية: 23].

والمراودة هي طلب الشيء بوسائل ومقدمات دالة من غير نطق، أو هو طلب الشيء بلطف، ثم التدرج به شيئًا فشيئًا في درجات الكشف عن المراد.

والمراد الحقيقي لامرأة العزيز من يوسف أن يضاجعها، ولما فشلت في جميع درجات المراودة، غلقت الأبواب، وهي سبعة أبواب وقالت: "هَيْتَ لك" أي لفظت اللفظ الصريح: أقدم عليَّ أو تعال إليّ، وقال الشيخ الإمام الدمشقي في "هَيْتَ" أنها انبطحت على الأرض[1]، وقال في قراءة "هِيْتَ" إنها كلمة عبرانية أو سريانية معناها في العربية ما

(1) تفسير القرآن، الشيخ الدمشقي 2/ 155.

ذكر[1]، وقال غيره: إنها عربية وهي لغة في هَيْتَ الأصل، وقد وردت "هَيْتَ" في لغة العرب بقول الشاعر:

أبلـغ أمـير المـؤمنين وأهلـه إذا أتيـت   أن العـراق وأهلـه سـلم إليـك فهيـتَ هَيـتَ[2]

وفي الآية (23) المذكورة تحقق في امرأة العزيز سلوكان هما: المراودة، ومدلول "هَيْتَ" في نهاية الأمر وهو الانبطاح على الأرض.

2.الآية:(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) [الآية: 24] قال المفسرون في "هـمَّ وهمَّـت" كثيرًا، وذكرنا ذلك غير مرة ومن أغرب ما جاء في تفسير "همت بـه" مـا جـاء في كتـاب كنـز العمال وهذا نصه "عن علي رضي الـلـه عنه، قال: طمعت فيه فقامت إلى صنم مكلل بالدرر والياقوت في ناحية من البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه، فقال يوسف عليه السلام: أيّ شيءٍ تصنعين؟ فقالت: استحي أنا من إلهي أن يراني على هذه السوأة، فقال يوسف: تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ولا استحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت، ثم قال: لا تنالينها مني أبدًا وهو البرهان" أي **(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)** [الآية: 24][3].

وهـذه الروايـة عـلى مـا بهـا مـن غرابـة، صـحت أم لم تصـح فهـي مـن بـين محاولاتهـا فالأرجح أن هذا السلوك يعود إلى لفظ "راودته" لأنها في معنى "همَّت" قد تجاوزت مراحل الإغراء من قبل هذه القصة إلى مرحلة العنف الجنسي وارتضينا في كتابنا

---

(1) نفسه، 2/ 115.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل، 4/ 32.

(3) كنز العمال في سند الأقوال والأفعال للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوزي، ضبطه وفسر غريبه الأستاذ الشيخ حسن زوق، وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه الأستاذ الشيخ صفوت السقا، نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامي، حلب، أميول، ط1، 1389هـ 1969، 2/ 440.

هذا أن المراد بـ"هم بها" أنه دفعها عن نفسه[1] ثم توقف عـن صـدها جسـديًا لتحقـق الدلائل وحيًا في نفسه في أنها لن تفلح في طلبها فلا تخف يا يوسـف[2]، في مـدلول قولـه تعالى: (**لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**) [الآية: 24].

3. **الآية (وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) [الآية: 25] حتى وسيدها يطرق الباب، يوسف يهـرب منهـا وهـي تجذبـه إليهـا فـوق مـا كـان منهـا مـن مـراودة، وهـمّ وكـل ملازماتهما.
4. **ثم في قلبها الحقيقة (قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** [الآية: 25] تخفي في نفسها أنها ستعيد الكرة مرة أخرى فلو لم يكن ذلك في نفسـها كـان من الأولى أن تقول: إلا أن يقتل أو عذاب أليم وتتوالى في نفسها المحـاولات إلى أن تهـدد بالقوة.
5. (**وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**) [الآية: 32] وذلك عندما دعت صويحباتها إلى فعل.
6. **وتنجح في استمالة صويحباتها (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**) [الآية: 32]. حتـى قلـن: ما عليك من لوم بعدما رأينا[3].

ب. شهادة الطفل الذي أنطقه اللـه ببراءة يوسف عليه السلام

(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِـن قُبُـلٍ فَصَـدَقَتْ وَهُـوَ مِـنَ الكَـاذِبِينَ)

[**يوسف**: 26] هذا الطفـل نطـق بـبراءة يوسـف، وتوصـل الملـك إلى قناعـة بـذلك، وجريًـا عـلى

(1) تفسير القرآن للدمشقي، 2/ 115.
(2) السابق، 2/ 115.
(3) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، 2/ 481.

سلوك ذوي الطبقات العليا من مثل الملوك، فإنه لا يظهر موقفهم سريعًا أو جليًا في مثل هذه المواقف، وبدا ذلك من سلوك الملك (**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ {29/12}**) [الآية: 29].

ويمكن وصف سلوك الطفل بالخوارق، وهي دون المعجزات تعطى لغير الأنبياء، وتسمى مكرمات بحسب ما ورد في معجم ألفاظ العقيدة[1]، ويبدو من الصعوبة تمييز هذا الحدث أمعجزة هو أم مكرمة؟ ففيه من أمر المكرمة لأنه على لسان طفل أكرمه الله وهو "ليس نبيًا" وفيه من أمر المعجزة لأن الطفل لم يبلغ مرحلة النطق والإفصاح والإبانة بالشكل الذي ظهر، فأنطقه الله بلسان الحق كي يبرئ نبيه وهذا وجه إعجاز، وفي الحالتين هو سلوك من غرائب سلوكات القصة.

ج. الإجماع على باطل

والإجماع على باطل لا يكون في أمة إسلامية، مهما كثرت فيها المعاصي قال صلى الله عليه وسلم "أمتي لا تجمع على باطل".

فمن غرائب القصة أن صويحبات امرأة العزيز، لما رأين يوسف وما عليه من جمال خارق أكرمه الله به، كففن عن لومها حتى قلن: "وما عليك من لوم بعد ما رأينا"[2].

ثم شاركنها في الطلب، حتى غدا الطلب منه فعل الفاحشة جماعيًا (**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ {33/12}**) [الآية: 33] عندئذ انتشت امرأة العزيز لما تحقق لها من صويحباتها وتمادت في غيها حتى انبطحت على

(1) معجم ألفاظ العقيدة، تصنيف أبي عبد الله عامر عبد الله فالح، تقديم فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، ط1، 1417هـ- 1997م، مكتبة العبيكان- الرياض، 378.
(2) تيسير العلي القدير، لاختصار تفسير ابن كثير، 2/ 481.

الأرض[1]، فغرابة أن يجمعن على هذا الباطل لا تقل عن غرابة سلوك امرأة العزيز نفسها.

رابعًا: أسرار في القصة

جرت العادة في القصص التقليدية، والروايات والمسرحيات الرمزية على أن تفكك كل الرموز في النهاية، ولا سيما إذا كانت هذه الأعمال الأدبية مصنوعة، أما إذا كانت مطبوعة فإن ذلك يتوقف على موضوعية ونزاهة الراوي والمصداقية في نقل الحدث، وأما قصة يوسف فهي من لدن حكيم عليم فمن أين يأتيها الباطل؟

فإن كان في القصص التقليدية ثمة ما يخفيه الكاتب من أسرار فمرد ذلك إما إلى مجافاة الموضوعية، وإما إلى ظروف تحيط به من نوع ما، وبصفة هذه القصة قرآنية فإنها في حل من كل هذه القيود، فما تخفيه النصوص القرآنية في مثل هذه المواقف ليس إلا لأنه لا يهم المسلمين، ولكن ليس منهيًا الاجتهاد به، لأن باب الاجتهاد إن كان لتحقيق مصلحة المسلمين فهو مفتوح للجميع فمن هذه الأسرار:

1. تغييب شخصية أم يوسف عليه السلام

لم نسمع بذكر أم يوسف إلا في اللفظ المستفاد من "ورفع أبويه على العرش" بصفتها أحد الأبوين، وذهبت بعض الأقوال إلى أنها متوفاة، وأن المقصودة في الآية هي امرأة أبيه، أمٌ الإخوة العشرة.

وفي الحالتين جرى تغييب هذه المرأة، سواءٌ أكانت أمه الحقيقية أم زوج أبيه، فلماذا غيبت من القصة؟ الأرجح والله أعلم غيبت لأنها مكملة لدور يعقوب عليه السلام في القصة سواء أكانت أمًا ليوسف أم زوجًا لأبيه والأبوان بالنسبة للابن شيء واحد، ولفظ "أبوان" يعني الأم والأب، ما لم ترد قرينة مخصصة تفيد أنهما مثنى أب التي تدل على أبوين ليسا لابن واحد.

---

(1) تفسير الشيخ الدمشقي، 2/ 115.

2. مصير امرأة العزيز بعد اعترافها

يستدل بالعقل على أنها أسلمت (**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {51/12}**) [الآية: 51] ولم تسمع كلمة في القرآن أقوى من هذه الكلمة في الدلالة على ظهور الحق، وظاهر الأمر أنها نجت بذلك من العقاب ولكن هذه النتيجة ليست مهمة، لأن العبرة بما قامت به وليس بما انتهت إليه.

3. عدم الإشارة إلى عقوبة صويحبات امرأة العزيز

كذلك يستدل على أنهن أسلمن من خلال الآية (**قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ**).

4. سكوت العزيز على محاولة امرأته الأولى في إغواء يوسف

حيث اكتفى بالقول يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك، لأنه رأى من الأولى ستر الرذيلة، ومن مثله في منصبه الاجتماعي يضع أمامه اعتبارات لا تضعها عامة الناس في مثل هذه المواقف.

5. لفظ ذئب في القصة، ولماذا احتج به يعقوب؟

إذا كان يوسف عليه السلام قد ظلم وانتصر الله له وانتقم، فإن الذئب قد ظلم ولم يُنتصر له إلى اليوم، حتى صار ظلمه مضرب المثل"كبراءة الذئب من دم يوسف".

فالظاهر أن يعقوب عليه السلام قد ذكره على أدنى ما يكون في الأمر من خطورة، وليس على أعلى ما يكون، لأن همه الحقيقي والتخوف الذي أبداه أنه لا يستطيع الصبر على فراق يوسف (**قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ**) [الآية: 13]

خامسًا: موازنة نقدية بين قصة يوسف والقصص التقليدية الأخرى

أ. في قصة يوسف تتابع أحداث ووقائع حقيقية لأنها نص قرآني، وفي القصص الأخرى غالبًا ما يكون في الأمر تكلف شيء وإخراجه بحسب هوى الكاتب ومقتضيات الظروف المحيطة.

ب. في قصة يوسف تتابع عناصر تشويق مطبوعة فلا يكاد المتتبع لها يجاب على واحد، إلا وقد أحدثت له القصة بديلاً فيكون حال القارئ في حالة ترقب، أو حزن، أو أمل، أو دهشة، فالقصة دائمًا تضع القارئ في الجو النفسي الذي يلائم الحدث، فمن منا لم يفزعه خبر فقد يوسف، سواء أكان التعبير عن ذلك بلفظ "أكله الذئب" أم بلفظ "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا"؟ ومن منا لم يحزن عليه وهو يتعرض للضرب منذ توارى به إخوته عن يعقوب عليه السلام إلى أن ألقي في البئر؟ وتركوه ولسان قال أبيه يكرر (**قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ**) [الآية: 13] ومن منا لم يحزن وهو يقرأ (**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**) [الآية: 84] ثم تتعجب من سلوك امراة العزيز وصبره عليها ومن إجماع صويحباتها على الباطل، وغير ذلك من الأمور التي وضعتنا فيها القصة بشكل مطبوع بالهيئة التي ينبغي أن تكون فيها، وأما القصص الأخرى فإن عنصر التشويق فيها مفتعل لأنه من صنع الكاتب.

ج. ربط المكونات: وجدنا في القصة ربطًا بين جميع المكونات بالرغم من كثرتها فكانت تنساب كالسيل في تتابعه من أرض كنعان إلى مصر والعودة، وكأن الأحداث تستقل حافلة تسير بين هذين المكانين وتبدو شيئًا واحدًا وفي ما يلي أمثلة ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر:

1. (**قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**) [الآية: 10] كان ذلك وهم يتشاورون بطريقة للخلاص من يوسف ولما يستأذنوا به أباهم، ثم استأذنوه وذهب يوسف معهم، ثم ألقوه في الجب، فهذا مكون من مكونات القصة.
2. وليوسف مشهد عندما اشتراه العزيز(**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**) [الآية: 20] وأوصى العزيز به امرأته.
3. وله قصة مع امرأة العزيز أشهر من أن نعيدها (**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللـهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) [الآية: 23].
4. وقصته مع صويحبات امرأة العزيز (**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**) [الآية: 30].
5. وقصته مع الساقي والخباز في السجن (**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**) [الآية: 36].
6. ثم عودة إلى حدث المراودة (**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلـهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**) [الآية: 51].
7. ثم العودة إلى إخوة يوسف في أكثر من مرة

أ. (**وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**) [الآية: 58].

ب. (**وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**) [الآية: 68].

ج.(**وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) [الآية: 69].

8. ثم عودة إلى يعقوب بالبشرى فيدخل مصر مع ذريته في حفل تنصيب يوسف (**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**) [الآية100].

وفي كل هذه الأحداث كانت تبدو القصة جامعة بين كل هذه المكونات ومؤلفة بينها كأنها شيء واحد، فتذكر الحدث أو جزءًا منه، ثم تنتقل كما رأينا إلى الحدث الملازم، أو الذي يستدعيه، فيلتقي هذا مع ذاك، وتكمل الأحداث بعضها.

الخاتمة

والدروس المستفادة من قصة يوسف

الدروس والعبر المستفادة من القصة كثيرة، ففي كل حدث ومنعطف من أحداثها ومنعطفاتها الكثير من الدروس والعبر، وحكت القصة على لسان كل شخصية من شخصياتها من العبر التي لا يحيط بها قلم، ونحن إزاء ذلك نقسّم هذه الدروس والعبر تقسيمًا إلى أبرز المناحي التي شملتها على النحو الآتي:

1. من النواحي التربوية

أ. غلبت على يعقوب عاطفة حب يوسف وبنيامين، بقصد تعويضهما عن فقد أمهما وتذوقهما مرارة اليتم صغيرين، لا بقصد إثارة بقية الأبناء لكن ذلك لم يفسره الأبناء الباقون كما ينبغي له، فأُخذ على جانب الغيرة التي انقلبت إلى عداء، وكان منهم ما كان.

ب. كان سلوك يعقوب مع بنيه بعد أن أُلقي يوسف في البئر، وافتعال أكله الكذب قائمًا على الملاحظة ومتابعة الأحداث، وإن حزن ولام وغضب، فهذا أصل عند الإنسان في مثل هذه المواقف، المهم أن مساره في تربية الأبناء لم يتأثر سلبًا.

ج. ظل يعامل كل من حوله طيلة الأربعين سنة التي غاب فيها يوسف عنه على قدر عقولهم، هم يلومونه، وهو يقول: (**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) [الآية: 96] إلى أن جاء البشير.

د. في تكرار مأساته بفقد بنيامين بعد يوسف ظل يمارس دوره في الأسرة الأب والقائد والموجه فضلاً عن أنه نبي.

هـ.الميثاق الذي أخذه يعقوب على بنيه في اصطحاب بنيامين، أشبه ما يكون بالعقد الاجتماعي في تربية اليوم، وهو تفاهم بين المعلم وطلابه يقود فيه المعلم طلابه إلى

قناعة راسخة بتقبل العقاب الذي ينجم عن عدم التزام المتعلم بميثاق ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين (**قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللـهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللـهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**) [الآية: 66].

و.قبول عذر أبنائه في التفريط بيوسف لما تابوا (**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) [الآية: 98] لأن المهم لديه تحقق رسالته التعليمية في البيت وليس العقاب فهو في البيت ربّ أسرة، فضلاً عن كونه معلمًا ومربيًا ونبيًا لأمة.

ز. عند عودة البشير بسلامة يوسف أول ما سأل يعقوب البشير عن الدين الذي يعتنقه يوسف في مصر، فأجابه: تركته على الإسلام، وفي ذلك تأكيد على رسالة معلم تربوي.

ح. سكوت العزيز على رذيلة امرأته في المرة الأولى، تقصد منه أشياء كثيرة أقلها ما ذكره بعض المفسرين أنه عذرها، وأبعدها أنه لا يأتي النساء، وليس لديه غيرة الرجال على نسائهم كما ذهبت بعض الأقوال، والراجح أنه من النواحي التربوية لا يريد أن يحصل تصدع في الأسرة، وتنتشر الرذيلة في المجتمع، فرأى في عقابها تفشيًا للأمر، فالسكوت أخف الخطرين، مع حث يوسف على الإعراض عن ذكرها، وحثها على التوبة والاستغفار(**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**) [الآية: 29].

ط.تجنب يوسف عبارات اللوم والتأنيب عند اعتراف إخوته بالذنب سواءٌ أكان ذلك في اللقاء الثالث مع إخوته وهو اللقاء الذي عرّف فيه بنفسه، أم في اللقاء الذي لم شمل الذرية وجرت فيه مراسم التتويج.

2. من النواحي الأمنية والعسكرية

أ. سقطت من يعقوب عليه السلام عبارة أخاف أن يأكله الذئب، والأولى ألا تقال لأن بنيه تلقنوها حجة، وجاؤا يقولون: أكله الذئب.

ب. تجنب يعقوب العنف مع بنيه وظل يستدرجهم إلى أن اعترفوا بكل تفاصيل ضياع يوسف.

ج. نهاهم عن أن يدخلوا مصر جماعةً **(لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ)** [الآية: 67] لأن عيون ملك مصر كانت تراقب الغرباء، والجماعة أدعى إلى الشك والريب عندما تكون في بلاد الغربة.

د. استخدم يوسف مع إخوته عندما التقاهم في زيارتهم الأولى إلى مصر أسلوبًا أمنيًا، لأن العيون قد جلبتهم إليه، ووجودهم في مصر يبعث على الشك، فشعروا من أسلوب التحقيق أنهم مخالفون، مع احتفاظ يوسف بقناعاته.

هـ. لم يكن يوسف عنيفًا في مواقف تثير المرء وتخرجه عن طور الهدوء من مثل:

1. عندما احتجز بنيامين لسرقته ظاهريًا قال إخوته إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، فأسرها، لأنه لو أبدى الحقيقة لنشب بينهم خلاف.

2. قابلته امرأة العزيز بالعنف عندما تمنع ولم يقابلها بالمثل فقصارى ما قام به أنه دفعها عن نفسه.

3. من النواحي الإدارية وتصريف شؤون الحكم

أ. توصل الملك إلى سجن يوسف بقرار صادر من القصر وبإشراك المقربين

ب. توصل كذلك إلى تبرئته بقرار مماثل

ج. تعيين يوسف وزيرًا للمالية بناءً على معطيات توصلت إليها هيئة التحقيق

د. كان الملك حريصًا على درء الأخطار ودرء الفاحشة في مملكته

ه. قدمت القصة دروسًا في إدارة الأزمات، فيعقوب كان يدير أزمة فقدان يوسف، ثم بنيامين وهذا يتطلب إدارة على مستوى عالٍ من الحنكة والتنظيم، والعزيز أدار ثلاث أزمات في كل واحدة كان يتخذ أسلوبًا يناسب طبيعتها على نحو من:

3. في محاولة امرأته الأولى حث الاثنين على كتمان الأمر

4. في المحاولة الثانية استجاب لطلب زوجة وحاشية القصر بسجن يوسف مع قناعته ببراءته كي يستر بذلك الأهم
5. بعد حلمه المفزع وتكشف حقائق أخرى من مثل محاولة صويحبات امرأته في إغواء يوسف شكل هيئة التحقيق المعروفة.

و. تجلت في القصة معاني الصفح والعفو عند المقدرة ولا سيما صفح يوسف ويعقوب عن أخوة يوسف.

4. من النواحي الاجتماعية

قدمت القصة درسًا في أضرار الاختلاط، فيوسف الذي مكث في قصر العزيز مدة من الزمن ظلت امرأة العزيز تحدث نفسها به إلى أن نفذ صبرها وكان منها ما كان.

5. من نواحي العقيدة وترسيخ الإيمان

فقد كان في القصة دروسٌ في الصبر على البلاء، وتحمل الأهوال والمخاطر في سبيل الله، وكان فيها مثال للتسامح والصفح عند المقدرة، والتواضع لله وكل أمر المؤمن خير، إن أصابه ضرٌ صبر، وإن نال خيرًا شكر وفيها وقفات مع النفس ومعاتبة الضمير.

اللهم هذا ما رأيناه في هذه السورة من القرآن الكريم مبتغين فيه وجهك، وسعينا لأن نرتقي بسورة يوسف في دراستنا الأدبية مرتقى يليق بها في ضوء ما وهبتنا من علمك إنك أنت العليم الخبير، لك الحمد على ما أنعمت به والصلاة والسلام على محمد خير الأنام والمرسلين وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

1- إبراهيم, عبدالـلـه, البناء الفني لرواية الحرب في العراق, دراسة لـنظم السرد والبنـاء في الرواية العراقية المعاصرة, دار الشؤون الثقافية العراق, بغداد, 1988.

2- ابن قيم الجوزية، بدائع التفسير، جمعه ووثـق نصوصـه وخـرج أحاديثـه يسرى السـيد محمد، دار الجوزي، ط1، 1414هـ 1993م.

3- ابن كثير، الإمام عماد الدين أبـو الفـداء إسـماعيل بـن كثـير القـرشي الدمشـقي، تفسـير القرآن العظيم، ط8، دار طيبة، 2012م.

4- ابن منظور، جمال الدين الأفريقـي المصري، لسـان العـرب، بـيروت، غـير معـروف سـنة النشر.

5- ابن يعيش، موفق الدين بن علي، شرح المفصل، بيروت –لبنان، عالم الكتب، سـنة الـنشر غير معروفة.

6- أبـو السـعود, قـاضي القضـاة, محمـد العـمادي الحنفـي, تفسـير أبي السـعود, تحقيـق عبدالقادر أحمد عطا, مكتبة الرياض الحديثة, الرياض, غير معروفة سنة النشر.

7- أبو عبدالـلـه عامر عبدالـلـه فالح، معجم ألفاظ العقيـدة، تقـديم فضـيلة الشـيخ عبـد الـلـه بن عبد الرحمن بن جبرين، ط1، 1417هـ 1997م مكتبة العبيكان، الرياض.

8- أحمد مختار، علم الدلالة، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة، ط3، 2003م.

9- الأصفهاني, أبو الفرج, الأغاني, بيروت, مؤسسة عز الدين (د.ت).

10- ألاهـو, ريمـون, حـوار في الروايـة الجديـدة, ترجمـة نزارصـبري, دار النشـؤون الثقافيـة العامة, ط1, بغداد, 1988م.

11-الألوسي البغدادي, شهاب الدين السيد محمود, تفسير القرآن العظـيم و السـبع المثـاني, إدارة الطباعة المنيرية, دار إحياء التراث العربي, بيروت –لبنان, طبعة بلا تاريخ.

12-الآمدي، أبو الحسن علي بن ابي محمـد التغلبـي، الأصـولي الفقيـه، الملقـب بسـيف الـدين، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق الدكتور رشيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط1، 1984م.
13-البرهان فوزي، العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهنـدي، كنـز العـمال في سند الأقوال والأفعال، ضبطه وفسر غريبه الأستاذ الشيخ حسـن زوق، وصححه ووضـع فهارسه ومفاتحه الأستاذ الشـيخ صـفوة السـقا، نشر وتوزيـع مكتبـة الـتراث الإسـلامي، حلب، أميول، أمام جامع أسامة، ط1، 1389هـ 1969م.
14-بشر, كمال, دراسات في علم اللغة, ط6, دار المعارف بمصر, 1986م.
15-البنا، أحمد عبد الرحمن، الفتح الرباني مع مختصر شرحه بلوغ الأماني مـن أسرار الفـتح الرباني، دار الشهاب، القاهرة، طبعة بلا تاريخ.
16-البيضاوي, إمام المحققين وقدوة المدققين, القاضي ناصرالدين أبو السعيد, عبداللـه بـن عمر بن محمد الشيرازي, صححه محمـد سـالم محيسـن شـعبان., ومحمـود إسـماعيل, مكتبة الجمهورية العربية, شارع الصنادعية, مصر, طبعة بلا تاريخ.
17-تشيتيرين، أ.ف، ترجمة د.حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ب.ت
18-التواني، مصطفى، فن الرواية الذهنية لدى نجيب محفوظ، مطبعة تونس قرطـاج، ط1، 1981 م.
19-الجرجاني، الإمام عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفـة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1978م
20-حسين، أنيس زكي، السجين (ر) دار مكتبة الحياة، ط1بيروت، 1961م.
21-الدمشقي، الإمام سلطان العلماء، عـز الـدين عبدالعزيزعبـد السـلام الشـافعي قـدم لـه وحققه وعلق عليه الدكتور عبداللـه بن إبراهيم بن عبداللـه الوهيبي، ط1، 1416هـ 1996م المملكة العربية السعودية، الإحساء.
22-ديستو فيسكي, قضايا الفن الإبداعي, باحثين, ترجمـة دكتـور جميـل نصـيف التكريتـي, مراجعة, د. حياة شرارة, ط1, بغداد 1986م.

23-الرازي، فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 2008م.

24-راغب، نبيل، فن الرواية عند يوسف السباعي، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1970م.

25-الراوي, مصطفى ساجد, بناء الشخصية في الراوية ط1, 1424هـ 2003م, مركز عبادي للدراسات والنشر, صنعاء الجمهورية اليمنية.

26-ريكارد، جان، قضايا الرواية الحديثة، ترجمة صباح الجهيم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1970م.

27-زغلول محمد سلام, دراسات في القصة العربية الحديثة, أصولها اتجاهاتا, أعلامها, منشاة المعارف, الإسكندرية, 1987م.

28-الزمخشري، كبير المعتزلة، جارالله ابو القاسم محمود بن عمر بن محمد تفسير الكشاف بيروت، المكتبة الوقفية، ط3، 1430هـ 2009.

29-السعدي، شيخ عبدالرحمن بن ناصر، المجموعة الكاملة تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، المملكة العربية السعودية، 1412هـ 1992م.

30-سيزا، أحمد، بناء الرواية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1988م

31-الشاذلي، عبد السلام، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة، 1882-1985م، دار الحداثة، ط1، بيروت، 1990م.

32-شدَّاد، محمد، منهج القصة في القرآن الكريم، شركة عكاظ للنشر والتوزيع، ط1، 1404هـ 1984م.

33-الشوكاني, محمد بن علي بن محمد، تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير, دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت- لبنان, غير معروفة سنة النشر.

34-الصابوني، محمد علي، مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بـيروت- لبنـان، ط7، 1402هـ 1981م.

35-الصادق قسومة, طرائق تحليل القصة, دار الجنوب, ط2, تونس 2015م.

36-الصاوي, شهاب الدين أحمد بن محمد الخلوتي الصـاوي, حاشـية الصـاوي عـلى تفسـير الجلالين, دار الكتب العلمية, بيروت- لبنان 2014م.

37-طبارة، عفيـف عبـد الفتـاح، مـع الأنبيـاء في القـرآن الكـريم، ط9، دار العلـم للملايـين، بيروت- لينان، 1996م.

38-الطبري, أبو جعفر, محمد بن جرير, جامع البيان في تفسير القرآن, دار المعرفة بـيروت- لبنان, طبعة بلا تاريخ.

39-عبدالجبار، محمد محمـود، الشخصـية في ضـوء علـم الـنفس، بغـداد، دار الحكمـة، 1990م.

40-عثمان, بدري, بنـاء الشخصـية الرئيسـة في روايـة نجيـب محفـوظ دار الحداثـة للطبـع والنشر والتوزيع, ط1, بيروت, 1965م.

41-عمر, أحمد مختار, علم الدلالة, ط5, القاهرة, 1998م.

42-غائب, طعمة فرحان, النخلة والجيران, منشورات المكتبة العصرية, بيروت, ب-ت.

43-الغرناطي، أبو حيان، محمـد بـن يوسـف الأنـدلسي، تفسـير البحـر المحـيط، دار الفكـر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1398هـ 1978م.

44-فضل, صلاح, النظرية البنائية في النقد الأدبي, مطبعة الأمانة, مصر, 1978م.

45-فوتو، برناردي، عالم القصة، ترجمة دكتور مصطفى هوارة، القاهرة، نيويورك، 1969م.

46-قاسم, سيزا أحمد, بناء الراوية, دراسـة مقارنـة في ثلاثيـة نجيـب محفـوظ, دار التنـوير للطباعة والنشر, ط1, 1985م.

47-القرطبي, أبو عبدالـلـه محمد أحمد الأنصاري, تفسير الجامع لأحكام القرآن, دار إحياء الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة, 1387هـ 1967م.

48-ليور، ميشار، الدراما، ترجمة أحمد بهجت قنصة، منشورات عويدات، بيروت-لبنان، ط1، 1965م.

49-موم، سومرست، عشر روايات خالدة، ترجمة سيد جاد، دار المعارف بمصر، 1971م.

50-موير،أدوين, بناء الرواية, ترجمة إبراهيم الصيوفي, مراجعة دكتور عبدالقادر القط, الدار المصرية للتأليف, القاهرة, 1965م.

51-موير، أدومين، نظرية بناء الرواية، ترجمة د. محمد قاسم الموسوي، مكتبة التحرير، بغداد، ط2، 1986م.

52-النازي, محمد عز الدين, السرد في روايات محمد زفرات, دار الشؤون العامة (آفاق عربية) بغداد, دار النشر المغربية, بلا تاريخ.

53-نجيب محفوظ، الرؤية والأداة، دار المعرفة للطباعة والنشر، القاهرة، ط5، 1982م.

54-النسقي، الإمام الجليل العلامة أبو البركات، عبدالـلـه بن أحمد بن محمود، المكتبة الأموية، بيروت، دمشق، مكتبة الغزالي، حماه، غير معروفة سنة النشر

55-ولتوان، الرواية الإنجليزية، ترجمة صفوت عزيز جرجيس، مراجعة د.مرسي سعد الدين، مشروع النشر المشترك، بغداد، القاهرة، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بلا تاريخ

56-يوسف, أحمد, السيميائيات الواصفة, مكتبة كنانة, إربد الأردن, ط1, 2003م.

الرسائل والمجلات

1- الراوي، فاتن إسماعيل، المثقف في الرواية العراقية، من 1928-1980، رسالة ماجستير، كلية ألآداب، جامعة بغداد

2- مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، ع3، 1987م / ص 12